رواية

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

بروس لاوري

الندبة

ترجمتها عن الفرنسية: وِئام غداس

المتوسط

بروس لاوري

الندبة

ترجمتها عن الفرنسية: وِئام غداس

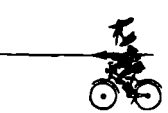

المتوسط

الندبة

حقوق النسخ والترجمة في العالم العربي © ٢٠١٨ منشورات المتوسط .

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

LA CICATRICE *by* "Bruce LOWERY"
© Editions Corrêa, Buchet Chastel, 1960
Arabic translation copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: بروس لاوري / المترجم: وِئام غداس / عنوان الكتاب: الندبة
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-60-4

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

(١)

كنتُ، دون أن أدرك، طفلاً سعيداً، سعيداً إلى حدّ بعيد، هذا صحيح. إلا أنها لم تكن سوى فكرة سطحية وعامّة، لأن حياتي، بالرغم من كل شيء، لم تكن تعوزها بعض الأحزان الصغيرة التي لم أتمكّن من التّعوّد عليها قطّ. يجب أن أعود بكم إلى نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٤٤، وأنا في الثالثة عشرة من عمري.

منذ وعيتُ على الحياة وأنا أحمل نَدبَة فوق شَفَتِي العليا، قال عنها الأطباء وهم يُقلّبون وجهي، ويسحبون شَفَتِي إلى الأمام، كَمَنْ يقلّب دابّة قبل شرائها، عن طريق فَحْص فمها، إن ذلك سيتطلّب "عملية إصلاح كبيرة"، كان بإمكاني، بل كان عليّ أن أكتشف أن ذلك لم يكن في الحقيقة سوى "شَفَة الأرنب"(*)، وإن وجد الجميع تسميتها "نَدبَة" أدعى للراحة دوماً.

أمّي التي لم تعرف يوماً كيف تكذب، خصوصاً على الأشخاص الذين تحبّهم، لم تنجح في جعل كل القصص التي أخبرتْني بها متشابهة، مرّة كان الأمر بسبب حادث عندما وقعتُ من سريري بعد ولادتي بأيّام، ومرّة ارتطم وجهي بأرضية إسمنتية، وأنا أخطو أولى خطواتي. كنتُ أشعر بضيقها

---

*) شَفَة الأرنب أو الشَّفَة الأرنبية: هو تشوُّه خِلْقيّ، يتمثّل في شقّ على طول الشَّفَة العليا للفم، وتصيب١ من كل ١٠٠٠ ولادة، وهو أكثر شيوعاً عند الذُّكُور، قد يشمل الشَّفَة وحدها أو الشَّفَة مع الحنك، وقد يصل الشّقّ حتّى جوف الأنف.

وهي تحاول في كل مرّة تغيير دفّة الحديث. كانت تلك الحقيقة الغامضة تخيفني، أنا بدوري، فلا أُلحّ في سؤالها أبداً، وقد كان هذا ما فعلته أيضاً مع عدّة أمور أخرى.

هكذا لم أعرف الحقيقة أبداً، ولكني عرفتُ أن ما أخفتْهُ عنّي كان واحداً من أهمّ أسباب تعاستها في الحياة. بعد سنوات، ستصارحني أمّي بحقيقة هذه "النَّدبَة"، متردّدة، متوتّرة، فلطالما سبَّب لها تشوُّهي ألماً أكبر ممّا سبَّبه لي بكثير.

باستثناء ذلك، فربمّا كان بإمكانها أن تحبّ عَينَيّ برموشهما الطويلة جدًّاً، رغم مسحة الشحوب التي كان يمنحها ذلك الخطّ الأسود المحيط بالقزحية، كانت عيناي، على أيّة حال، تشبهان عينَيْها كثيراً، بلونهما الأزرق الممتزج بخضرة فاتحة، والذي ورثتْهُ عن أجدادها ذوي الأصول الألمانية.

عند ولادتي، كرّرتْ بداخلها آلاف المرّات السؤال نفسه الذي كانت تتوجّه به إلى الرّبّ: "ما الذي فعلتُهُ لكَ كي أستحقّ هذا؟ لمَ هذه العاهةٌ في هذا الكائن الذي تكوّن بالحُبّ داخل أحشائي؟!"

أمّي التي كانت بروتستانتية مؤمنة، لم تستطع قطّ الجمع بين الرّبّ قبل ولادتي، الذي كانت مقتنعة بطيبته، والرّبّ بعد ولادتي، الذي - والحالة هذه - جعلها رغماً عنها تكتشف شيئا من الظلم واللاعدالة والأذى غير المبرّر، فرؤية "النَّدبَة" كان يبعث فيها شعوراً بالذهول والارتباك مع ميلاد كل يوم جديد.

أبي الذي كان يتمتّع بطبع أقلّ حساسية، تقبّل الأمر بهدوء، كانت أمّي

تحسده عليه، وتلومه في الوقت نفسه، من المؤكّد أنه كان يفسّر الأمر كما كان يفسّر أمور أخرى عديدة: أنها أشياء تحصل دائماً ...

أما أخي بوبي فلا شكّ أنه لم يفكر بالمسألة مطلقاً، كان بالكاد قد بلغ السادسة من عمره إذ كان يصغرني بسبعة أعوام، بالنسبة إليه شَفَتي تُشكِّل جزءاً منّي، فلا فارق بينها وبين أذنيّ أو أنفي، وليس فيها ما هو مختلف عنهما أو عن باقي أطرافي، كان يحبّني بكل بساطة وصِدْق، كما يحبّ أيّ ولد أخاه الأكبر، سوف يعاني لاحقاً، ويموت، ولا أعرف هل كان ذلك خطئي؟! كما لن أعرف طيلة حياتي، سوف أعيش أبداً داخل هذه الحَيْرة ... بوبي، الذي كانت الحياة بأكملها أمامه، لن أراه مجدّداً راكضاً نحوي واثقاً ومُحِبّاً كعادته، غير أنني سآمل من خلال هذه السطور إحياء كل المشاعر الكبيرة والقوية التي كان يحملها ذلك الصغير نحوي، أنا مَدين له بذلك.

بغضّ النظر عن كل المشاعر المؤلمة التي كنتُ أُسبّبها لأمّي، ورغم أني لم أكن أعرف حقيقة واضحة لنَدبَتي، إلا أني لطالما تمنّيتُ أن يكون الرّبّ أيضاً شاعراً بحجم مأساتي، ولو قليلاً.

- قولي لي، يا ماما ..

ثمّ أردفتُ سائلاً: الرّبّ طيّب، أليس كذلك؟

- نعم، طبعاً.

- ولكنْ، إذا كان الرّبّ طيّباً، فلمَ خلقني بهذه "النَّدبَة"؟

- ولكنْ، كلا، ليس هو مَنْ فعل ذلك، قلتُ لكَ إنه كان حادثاً.

- إذنْ، فلمَ سمحَ أن يحصل لي هذا الحادث؟

اضطربت أمّي، وتركت الصحن الذي كانت تنشّفه من يَدَيْها:

- أوه، لأنه مشغول دائماً، وعنده آلاف المشاكل التي يجب حلّها، هل لكَ أن تتخيّل ما يعنيه أنه مسؤول عن كل هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون فوق الأرض!

- هو مضغوط إذنْ؟

مبتسمة:

- نعم، بالضبط "مضغوط".

خرجتُ من الغرفة، ثمّ عدتُ، وسألتُها:

- إذا وثقتُ وآمنتُ به بقوّة، هل سيسمع صلاتي، ويحقّق ما أطلبه منه؟

- ليس بالضرورة ...

- لأنني طلبتُ منه كثيراً أن يزيل نَدبَتي، ولكنه لم يفعل.

- ربمّا .. ربمّا لم تُصلِّ بشكل كافٍ.

بعد عودتنا أنا وبوبي من درس الأحد الدِّيني كل أسبوع، كنتُ أظنّ مقتنعاً أنها الآن وبمُجرّد النظر في المرآة: "هي" لن تكون موجودة! كم مرّة هُرعتُ وكُلّي أمل نحو تلك المرآة! ولكنْ "هي" للأسف كانت دائماً هنا.

ولأنني كنتُ طفلاً مفكّراً وقلقاً رغم سنواتي الثلاثة عشرة، فقد وصل

بي الأمر إلى القيام بتحليلات معقّدة ومساومات غريبة مع الرّبّ، وبما أن عصر المعجزات قد انقضى اليوم في عيون العالم الجديد، قلتُ لنفسي إنني يجب أن أتمتّع بميزة استثنائية عن الجميع.

كنتُ مقتنعاً بالتالي بدون أن أتساءل لماذا، أن أحداً لا يجب أن يعرف بأمر معجزتي الصغيرة، وإلا فإن الرّبّ لن يحقّقها أبداً، ومن هنا وعدتُهُ وعداً قاطعاً في حال أزال تلك النَّدبَة عن وجهي، بأنني لن أُخبر أحداً على الإطلاق عن كيفية حصول ذلك. سوف يكون الأمر هكذا: سينهض والدَاي ذات صباح، وكل الناس، باستثنائي، وقد نسوا تماماً أن نَدبَة وجهي قد وُجِدَت ذات يوم.

في أحد الأيّام، غمرتْني فجأة سعادة جنونية، فقد اكتشفتُ خطأً في خطّتي، لم أنفكّ عن الترديد: "ولكنْ، بالطبع! لهذا لم يزل الرّبّ نَدبَتي، هذا هو السبب!"

... لأنني قرّرتُ أن أكون الوحيد العارف بسرّ المعجزة.

ولذا اقترحتُ حلاً جديداً على الرّبّ، مازلتُ أتذكّر جيِّداً، كان ذلك يوم انتقالنا إلى منزلنا الجديد. في إحدى ليالي نوفمبر (تشرين الثّاني) من عام ١٩٤٤. تلك كانت أوّل ليلة لنا هناك، أوّل ليلة لي في غرفتي الجديدة.

منزلنا الجديد لم يكن جديداً سوى بالنسبة إلينا. ففي الواقع، كان يسكنه أشخاص قبلنا، منزل صغير مصنوع من الخشب الأبيض، يصلح لسَكَن عائلة، مع مرجة خضراء، تحتلّ مساحتها عدّة أمتار، حيث قرّر أبي مع حلول الصّفّ المناسب زرع كثير من شتلات الورد. غرفتان في الطابق السفلي، أخذ والدَاي الأوسعَ من بينهما، والأخرى كانت لـ بوبي، أمّا أنا،

فقد أخذتُ الغرفة الوحيدة في الطابق العلوي. غرفة مذهلة الجمال، بالنسبة إلى طفل مثلي، يعشق الضوء، تطلّ نوافذها على ثلاث جهات، لم يكن فيها أكثر من النوافذ، عشر نوافذ!

قبل الصعود إلى غرفة نومي، بقيتُ لوقت طويل داخل الحمّام. مرّة أخرى، كنتُ أتفحّص النَّدبَة أمام المرآة التي كنتُ أحتاج للصعود فوق كرسيّ أبيض قصير للوصول إليها، مرتكزاً بركبتي على حافّة المغسلة: انتفاخ في الزاوية اليمنى من الشَّفَة العليا، ولا أثر لذاك التّقوّس الجميل في المنتصف الذي يرتسم على شفاه والدَيّ، على شَفَة أخي الصغير، على شفاه كل الناس. ولكنْ، كان هنالك ما هو أسوأ : عندما أضحك تظهر ثنية أفقية قبيحة جدًّاً، تميل قليلا نحو اليمين.

- لماذا؟ قلْ لي، يا إلهي، لماذا؟

ومرّة أخرى، غشت الدموع عينَيّ.

- جيف! ما الذي تفعله بالداخل منذ وقت طويل؟

ما إن سمعتُ صوت أمّي من خلف الباب،حتّى هُرعتُ لفَتْح الخزانة الصغيرة وراء المرآة، وسحبتُ فرشاة أسناني ذات الممسكة الخضراء دائماً، إذ كان لكل منّا لونه.

- انتظري قليلاً، فأنا أنظّف أسناني.

- هيّا، جيف، بسرعة، أنا وبابا نريد أن ننام باكراً، بعد يوم الانتقال المرهق هذا.

ثمّ وصلني صوت خطواتها وهي تبتعد في الممرّ.

- إذنْ، أهذا وعد، يا ربّي؟ (همستُ بصوت منخفض). غداً عندما أستيقظ سأجد شَفَتي كشفاه كل الناس، حتّى أنا سأنسى، حتّى أنا لن أكون واعياً بمعجزتكَ، وعد؟

كان ذلك اتّفاقي الجديد مع الرّبّ، حتّى أنا سأكون غير واعٍ بمعجزته، حتّى أنا سأنسى تماماً أنني كنتُ ذات يوم أحمل تلك النَّدبَة، الرّبّ طبعاً لم يعد هو ذاته صاحب المعجزات الكبيرة التي يتحدّثون عنها في درس الدِّين يوم الأحد، لقد غيّر طريقته، وجعل الامتحان أصعب، لم يعد يرغب في مساومة البشر على إيمانهم عن طريق المعجزات، أوه، ولكنه ما يزال يفعل ذلك حتّى اليوم، الفرق أنه أصبح يخفي معجزاته عمداً، ليختبر نوايا الإنسان، ومدى صدقه، لأنه يجب أن يُؤمَن به بشكل أعمى وبديهي، هذا واضح جدًّا!

تملّكتْني سعادة غامرة إلى الحدّ الذي لم أشعر معه بنفسي وقَدَمي تنزلق من فوق الكرسي، ثمّ أسقط على الأرض. في قرارة نفسي، كانت بعض الشكوك تحاول اختراق قناعاتي تلك، مثل حشرات لا تنفكّ تدور، وتضرب بَلُّور نافذة مغلقة. غير أني واجهتُ هجمة الشكوك بعقل مغلق تماماً، مقتنعاً بضرورة الحفاظ على إيماني الأعمى فوق كل شيء.

- هيّا، جيف، اخرجْ من هناك فوراً، وإلا أريتُكَ.

كان هذا صوت أبي الهادئ والحازم، الذي لا يقول كلاماً إلا إذا كان يعنيه، والذي كنتُ أطيعه على الفور.

ألقيتُ نظرة أخيرة على المرآة، وابتسامة أخيرة، حيث ظهرت تلك الثنية البشعة، قلتُ لنفسي إنها ستختفي غداً، كنتُ متأكّداً من ذلك، تقريباً متأكّد .. لا! بل كنتُ مقتنعاً تمام الاقتناع، مقتنعاً بكل معنى الكلمة.

اعترضني أبي وأنا أركض نحو غرفتي، وخفتُ من صفعة، لم أتلقّها في النهاية.

- ما بكَ، جيف؟ تضحك؟ هل ترى أنه من المضحك أن تجعل أباكَ ينتظر؟

- لا، يا بابا، ليس من أجل هذا ..

ثمّ أضفتُ:

- ولكني سعيد، سعيد جدّاً!

توقّفتُ فوق الدرج، ورحتُ أتمطّى ساحباً يَدَيّ نحو الأمام بكلّ فرح.

- لا أفهمكَ بتاتاً، أيّها الطفل المدلّل، قضيتَ كامل اليوم وأنتَ تكرّر أنكَ حزين بسبب مفارقة البيت القديم.

صعدتُ الدرجات المتبقّية مُهرولاً وأنا لا أحير جواباً. داخل الغرفة الباردة، لبستُ بسرعة مَنَامَتِي، ودون أن أُضيء النور، قفزتُ إلى سريري.

محشوراً تحت الأغطية الدافئة حتّى أنفي، تأمّلتُ هذه الغرفة الغريبة عنّي، على الأرض أكياس مليئة بأغراض، لم تُرتّب في أماكنها بعد، القمر يُسلّط النور على خشب التنوب الأبيض المصنوع به كامل البيت، وعبر النوافذ كانت أشعّته الفضّيّة على قشور الثلج تضفي على النباتات

والأشجار المغطّاة بها جمالاً فائقاً وغريباً، يسكب عليها ضوءاً أبيض لامعاً، كأنها صور من بَلُّور منثورة على قماشة الليل السوداء.

إنه الرّبّ، أقول لنفسي، مَنْ يرسم كل هذه النباتات، السَّرْخَس والصّبّار، وهو مَنْ يقوم بدفع هذه النباتات المشوكة الضخمة حتّى تطلع، أجمات العشب، أشجار النخيل المذهلة التي لطالما حيّرني ارتفاعها الشاهق حتّى تصل إلى نوافذ البيوت العالية، وتغطّيها. وأنا أنتظر طلوع النهار، تأمّلتُ عميقاً ذلك كله، مأخوذاً بهذه الأبراج الطبيعية التي يُتقن الرّبّ تشييدها.

فجأة تذكّرتُ كرة الكريستال التي تحمل بداخلها حبّة الخردل، والتي قبل سويعات أخرجتُها بنفسي من علبتها، ووضعتُها على طاولة الصالون. نهضتُ بحذر، ونزلتُ كي أُعيد قراءة الكلمات المكتوبة على الساق الخشبية التي تحمل كرة الزجاج، ولأطمئنّ ظللتُ أكرّر الجملة حتّى أحفظها عن ظهر قلب: "لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ"(*)

غداً، سأصحو، و"هي" لن تكون هنا، سوف أنسى حتّى إنها وُجدت ذات يوم!

---

*) "لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ" : متّى الآية ١٧: ٢٠ (إنجيل).

(٢)

في الصباح، شعرتُ بضوء رقيق، يداعب جفوني، فتحتُ عينَيّ مذعوراً، وفكّرتُ أنه لتكون الغرفة مضاءة لهذا الحدّ، فهذا يعني أن الوقت تأخّر، وخشيتُ أنني قد ارتكبتُ خطأ التأخير مع أوّل يوم لي في المدرسة الجديدة. ضوء برتقاليّ يغمر الغرفة شديدة البرودة، إذ لم تكن مغطّاة بعدُ بأيّ سجّاد، كما كانت النوافذ لا تزال بلا ستائر، فقط طبقة الثلج السميكة هذه، التي أصبحت أكثر علوّاً منذ البارحة، ازدهرت براعم الصّبّار والطحالب الشوكية الجديدة في كل مكان، في ذلك الوقت كان اللون البرتقاليّ آخذاً في الاصفرار رويداً.

قفزتُ من السرير ملتحفاً بالبطّانيّة، واتّجهتُ نحو النافذة، نحو النور، لم أستطع رؤية أيّ شيء أمامي، الرؤية كانت محجوبة بطبقات الثلج المتجمّدة، أزلتُ قطعة منها بأظافيري، فذابت بسرعة بين أصابعي، ثمّ أصبح بإمكاني أخيراً رؤية الخارج.

كان المنزل واقعاً على قمّة منحدر، يتّجه نزولاً نحو الشرق، أمام عينَيّ، تمتدّ حتّى الأسفل صفوفٌ منتظمة من الأسقف المغطّاة بالثلوج، وعلى عكس ما بدا لي، كان الوقت لا يزال باكراً جدّاً، إنّه الفجر.

بالكاد يمكنني رؤية الشمس، رغم أنه بإمكاني رؤية الانتشار الشاسع لأشعّتها على كامل المدينة، شعرتُ كما لو كنتُ أقف فوق جبل وسط

سهل واسع وفارغ، صمت مطبق والمدينة نائمة تحت الثلج، في البرد. هل كنتُ الوحيد الذي يرى هذا المشهد المذهل؟ الوحيد داخل هذه المدينة الكبيرة؟ ربمّا ...

ولكن القرص البرتقاليّ بدأ في الارتفاع من خلف بعض الغيوم، غمرني ذلك الشعور النقيّ والمنعش الذي يُخلِّفه الجمال، والذي لا يمكن أن يشعر به عادة سوى طفل، عندما لا يفكّر في شيء، لا يستمع إلا لحواسّه البِكْر، بدون ذكريات. كان الجمال والحُبّ والسعادة شيئاً واحداً بالنسبة إليّ، لا أعرف كيفية التفريق بينهم، بل لم أعرف حتّى إن كان ثمّة فرق بينهم.

بدا لي أنني وضوء الفجر هذا متشابهان، كلانا يقف عند نقطة واحدة، نقطة البداية.

أين سأكون بعد عشر سنوات، سنة ١٩٥٤؟ أين سأكون سنة ١٩٦٤؟

ترنّ هذه التواريخ والأرقام بقوّة عندما أنطقها بصوت عال داخل غرفتي، بقوّة كالمستحيلات، أكرّرها بنبرات مختلفة، وأحبّ إيقاعها.

"سوف أصبح عالم آثار كبيراً، وسوف أسافر لأشاهد عجائب العالم السبعة! كما في هذا الكتاب الجميل لهاليبرتون، سوف أكتشف مقابر فرعونية، لم تُكتشَف بعد، وسوف آخذ بوبي معي ووالدَيّ أيضاً، ستُصاب أمّي بدوار البحر، ولكن ذلك سيمرّ. وعليّ أخذ عشبة الليمون أيضاً لاتّقاء الناموس.

وبما أنني سأسافر كثيراً، فسوف يمكنني إيجاد طوابع بريدية في البلدان كلها، وبالتالي سوف أُثري ألبومي، وستصبح مجموعتي رائعة مثل مجموعة

السّيّد ساندت، صديقي العجوز الذي يعطيني أحياناً تلك الطوابع التي يمتلك منها اثنَيْن، سوف تصير كبيرة وجميلة إلى الحدّ الذي سأضطرّ معه أن أضعها في خزانة حديدية، لحمايتها من السرقات."

لم يخطر لي قطّ ما سأكشفه لاحقاً، ولا أعني بذلك العجائب قطعاً! بل وحشاً ضارياً، وليس في الجانب الآخر من الأرض حتّى أحتاج إلى السفر إليه لاكتشافه، بل هنا، في داخلي.غير أنني وقتئذ، وأنا أراقب الفجر، كنتُ سعيداً بالفعل، استأنفتُ الحساب، وهذه المرّة رحتُ أحسب كم سيكون عمر أخي الصغير بوبي بعد عشرين عاماً.

أشرقت الشمس تماماً الآن، وأصبح من المستحيل إطالة النظر إليها، السحب الخضراء والبنفسجية بدأت تتلاشى أكثر فأكثر، والجليد الأبيض على الأسقف وعشب المروج لن يستمرّ في المقاومة كثيراً. ما يزال الجوّ بارداً نوعاً ما، تشبّثتُ بالغطاء الملفوف حولي، وألصقتُهُ أكثر إلى جسدي، أسفل التّلّ ومن الشارع الواسع وصلني صوت صفير بعيد لتِرَامِ الساعة الأولى، وسط صمت كثيف.

فجأة تذكّرتُ! رميتُ الغطاء، ونزلتُ الدرج راكضاً، ثَبَّتُّ الكرسي أمام المغسلة، ورفعتُ رأسي إلى المرآة.

- ما بكَ؟ لماذا تقف هنا في هذه الساعة؟

كانت أمّي التي أيقظها ضجيج نزولي المستعجل على الدرج، وسط دهشتها، هُرعتُ لتطويق خصرها، ثمّ أمسكتُ أصابعها بين يَدَيّ، وبينما أنتحب، شرحتُ لها كل شيء.

لم تنبس بحرف واحد، وعندما رفعت عينَيّ إلى وجهها، أشاحت بعينَيْها عنّي.

- ولكنْ، ماما، إيماني أصلب بكثير من حبّة خردل، أنا متأكّد، هل تصدّقينني؟ أجيبيني ماما.

- أصدّقكَ طبعاً، يا صغيري، ولكن الرّبّ لديه، بلا شكّ، أسبابه، وله حتماً حكمة في ذلك، سوف تعرف يوماً أن هنالك أشياء كثيرة في الحياة غالباً ما يكون الإنسان قاصراً عن فهمها.

داعبتْ رأسي بيدها الجميلة، تلك اليد التي كانت تمتلك قدرة سِحْرِيّة على مسح أحزاني كلها.

- اذهبِ الآن، اذهبْ، وعُدْ للنوم حتّى لا تشعر غداً بالنعاس داخل الصّفّ، لا أظنّ أنكَ تريد تَرْكَ انطباع سيِّئ عنكَ منذ اليوم الأوّل.

ببطء صعدتُ الدرج، بخطى ثقيلة، كأن هاتَيْن القَدَمَيْن ليستا ذاتَيْهما اللَّتَيْن نزلتا للتّوّ بخفّة وسرعة جنونية، دخلتُ إلى السرير دون أن أعرف أيّ ألم خلَّفتُهُ في قلب أمّي، دون أن أعرف أننا كنّا نتقاسم المشاعر نفسها، في اللحظة ذاتها، وأنني، بطريقة ما، لأوّل مرّة، وكما حصل مع أمّي، بدأتُ أرى عند الله شيئاً من الظُّلم والأذى.

لم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتّى سمعتُ خشخشةَ فَتْح أوراق صحيفة سومرست سيتي (Somerset City journal) التي يقرؤها أبي يومياً، ودفقة النار وهي تنبعث من الغاز الذي أشعلتْهُ أمّي تحت القهوة، في المطبخ.

(٣)

في يومنا الدراسيّ الأوّل، اصطحبتْنا أمّي، أنا وبوبي إلى مدرستنا الجديدة، كنّا قد بدأنا الدروس منذ شهر سبتمبر (أيلول) في المدرسة القديمة، وكانت تلك سنة بوبي الابتدائية الثانية، بينما كنتُ أنا أُكمل سَنَتي الأخيرة.

كان من الطبيعيّ بتغييرنا الحيّ أن يتغيّر محيطنا الاجتماعي، فقبل ذلك، كان جيراننا موظّفين من طبقة بابا نفسها، الذي كان يشتغل في مركز الأرصاد الجوّيّة، غير أنني الآن سأجد نفسي بين أولاد الأطبّاء والمحامين ورجال الأعمال.

يقع منزلنا الجديد في الجهة الأخرى من "فران ستريت"، الجهة الشعبية أو بالأحرى الجهة التي يقول عنها أولئك الذين لا يسكنون فيها، إنها "ليست راقية"، على الرغم من أن منزلنا كان مطابقاً من حيث هندسته المعمارية للمنازل الأخرى الجميلة في الجهة الراقية من فران ستريت، والتي لم يكن يفصلنا عنها سوى بضع أمتار، تتمثّل في شارع بسيط، يُعدّ الخطّ الفاصل بيننا، وهي حدود لا مَرئية، لم تُمثّل يوماً أيّ إشكال، بالنسبة إلينا.

في المدرسة القديمة، كانت الأمور تسير بشكل جيّد، مع أولاد العمّال البسطاء والموظّفين، وبالرغم من عزلتي، لطالما حظيتُ بمعاملة جيّدة

من قِبَل زملائي، لم أكن موضع تملُّق، ولكنْ، ليس أيضاً موضع سخرية أو تخويف. كانت نَدبَتي تثير أحياناً، بالطبع، بعض الفضول لديهم، ولكنني أظنّ أنه من الصِّدْق بمكان أن أقول إنه كان فضولاً بريئاً، خالياً من القسوة.

تعوّدتُ على وجود رتيب وروتينيّ غير أنه لم يكن تعيساً بأيّ حال من الأحوال، ولم أتخيّل للحظة أن شيئاً آخر يمكن أن ينتظرني في المدرسة الجديدة.أصابتْني خيبة الأمل منذ صعود الدرج مع أمّي وبوبي، فقد لاحظتُ أن الحاجز المحيط به كانت تقطعه بانتظام زوايا معدنية، تجعل محاولة التزحلق عليه مستحيلة، بلا شكّ، كما نفرت أيضاً من الرائحة اللاذعة للمعقمات وموادّ التنظيف التي تفوح من كل أركان المبنى.

كانت الآنسة مارتال وهي معلّمة في مدرسة "ماري نويل مورفري" الابتدائية، امرأة أربعينية، قصيرة، بدينة وفاقدة للنشاط، تمتلك صوتاً خافتاً، ومُطفَأ، شعرها الأشقر باهت، مظهره أقرب لشَعْر صناعيّ قديم، رغم أنه شَعْرها الحقيقي، قلتُ لنفسي إنها لا بدّ بسبب مهنة التعليم، فَقَدَ صوتُها طَابَعهُ، وشَعْرُها لونَهُ، وقد كان ذلك الجانب الضعيف في طبيعة الآنسة مارتال على غرار العملة التي تَرِثّ بشكلٍ متسارع عندما يكون سَكُّها معيوباً.

تركتْني أمّي بسرعة لتصطحب بوبي إلى صفّه، لأنه حسب تقديرها كان عليها أن تتكلّم أكثر مع معلّمته، وعندما وجدتُ نفسي وحيداً وغريباً داخل الصّفّ، تفاديتُ النظر قَدْر الإمكان إلى بعض التلاميذ الواقفين قرب خزانة الملابس في انتظار الجرس.

سحبت الآنسة مارتال من مكتبها لوحاً كرتونياً مربّعاً أبيض اللون،

مقسّماً بالقلم إلى مربّعات متناسقة، كل مربّع يحمل رَقْماً، يشير إلى المقاعد، خصّصتْ لي رَقْماً، وأشارت لي، بكل لطف، إلى مكاني.

جلستُ في مقعدي، وبدأتُ بسَحْب أدواتي، وترصيفها بكل شغف، علبة الألوان، دفتر جديد ما تزال أوراقه بيضاء، وأشياء أخرى، بما في ذلك مفرقعة عتيقة، احتفظتُ بها، مع أنها بالية،لِما احتَفَظَتْ به من رائحة البارود المُستَحَبَّة.

رنّ الجرس أخيراً، فملأني، في الوقت نفسه، شعور بالفرح والرهبة. يرنّ مجدّداً في ذهني الآن، وأنا أحكي عنه، وفي كل وقت، أستحضره، ذلك الجرس القابض للصدر، والأقرب لأن يكون عسكرياً.

انطلقت مجموعة من الصبيان والفتيات أنيقي المظهر، وملؤوا سريعاً مدخل الصّفّ، مُغلَّفين كُلّياً بالمعاطف، التي بدؤوا بنزعها ونزع القفّازات و الشالات الصوفية، وتعليقها داخل الخزانة المخصّصة للملابس، بعد ذلك، استقرّوا في أماكنهم.

في البداية، جعلتْنا الآنسة مارتال نقف بشكل جماعيّ، ثمّ سحبت آلة تنغيم (ديابازون) صغيرة، بدأت تنقر عليها، لتعطينا نغمة الـ "لا"، وتقودنا في إنشاد أُغنيّة "صباح الخير" القصيرة، التي، حسب رأيها، ستضعنا في مزاج جميل، لبدء يوم جديد.

عندما عاد الجميع إلى مقاعدهم، طلبت منّي الآنسة مارتال بكل لطف، ظنّاً منها أنها تفعل شيئاً جيِّداً، أن أخرج إلى مقدّمة الصّفّ، وأقف أمام زملائي، لتُقدمني إليهم، بصوتها المطفأ، ولكنْ، بنبرة اجتماعية جدّاً،ففي هذه المدرسة، من الضروري أن تكون اجتماعياً، قالت:

- يا أولادي، أقدّم لكم طالباً جديداً، نحن سعداء جدّاً بانضمامه إلينا، وأريد أن تكونوا لطفاء معه، اسمه ...

لم تستطع المواصلة على الإطلاق، فقد قامت عاصفة من الضحك، أشبه بوباء انتشر فوراً في كامل الصّفّ.

احترتُ بما أفعله بيَدَيّ، مرّة أحشرهما في جَيبَيّ، ومرّة أضعهما وراء ظهري، تفقّدتُ ثيابي، وإذ لا شيء غريباً فيها، ارتسمت على وجهي تعابير غير مفهومة، تتراوح بين لامبالاة مصطنعة، وابتسامة مريرة، ولكني فجأة استعدتُ وعيي بالثنية التي تقسم شَفَتي عند الابتسام، فاخترتُ تعبير اللامبالاة، شعرتُ أنني صرتُ في تلك اللحظة أقرب إلى إحدى شخصيات الفودفيل(*)، مثيراً للضحك وللبكاء، في الوقت نفسه. أنا أيضاً شعرتُ بالرغبة في الضحك، ولكن الرغبة في البكاء كانت أقوى، لأن الدافع وراء موجة الضحك تلك لم يكن نبيلاً. رغم ذلك لم أضحك، ولم أبكِ.

كلّما توقّفت العدوى في جهة من القاعة، استأنفتْها جهة أخرى، وحتّى أتفادى إشارات التلاميذ وحركات وجوههم الساخرة، بدت عينَيّ مذعورَتَيْن جدّاً، تتنقلان بلا هوادة دون أن تعرفا أين يجب أن تستقرّا، توقّفتا لبعض الثواني على سلّة المهملات، الكبيرة والفارغة، وفي النهاية بقيتا مثبّتَتَيْن على المبراة بكرشها الكبيرة المصنوعة من مادّة شفّافة، تظهر من خلالها بقايا بَري عدد لا يُحصى من الأقلام، غير أن الانصراف إلى تأمّل هذا الشيء والتدقيق فيه، لم يكن سوى دليل آخر على عزلتي.

---

*) الفودفيل: مسرحية هزلية أميركية، تنتمي إلى ما يسمّى بالكوميديا السوداء، تتميّز بوضعيات أبطالها المعقّدة والحزينة رغم طرافة شخصيّاتهم ظاهرياً، أُنتجت سنة ١٩١٩، ولاقت نجاحاً منقطع النظير.

هل أنا من أولئك الأشخاص دائمي التّألّم في كل الأحوال، ولأبسط الأسباب؟ هل كنتُ طفلاً مهموماً ومعذَّباً بإفراط ومبالغة؟ لا أظنّ ذلك.

- هيّا، هيّا، اصمتوا، أنتم قليلو الأدب كثيراً، ولكنْ، يكفي، قلتُ اصمتوا، أنتم سيّئون بالفعل!

بصوتها الأجشّ والجافّ صرخت بهم الآنسة مارتال.

أخيراً خفتت موجة السخرية، بسبب الملل أكثر ممّا كانت نزولاً عند أمر المعلّمة، لكنها في كل الحالات إعفاء سعيد لأولئك الذين استهدفتهم، حتّى القسوة يمكن أن تُملّ أيضاً.

وسط القاعة التي كانت تضمّ أربعين طالباً، كان ثمّة مَنْ لم ينخرط في نوبة الضحك، فتاة بحدبة صغيرة غير ظاهرة كُلّيّاً، وكذلك ويلي الذي بالكاد لاحظته من ضمن الذين تفادوا إحداث ضجّة، ولد أشقر، طويل ونحيف، يمتلك أذنَيْن كبيرتَيْن وبارزتَيْن، كان هذا ويلي، الذي لم أعره في البداية انتباهاً كبيراً، ولكنْ، منذ تلك اللحظة، وبفضل ذاكرتي الجيّدة، ظللتُ محتفظاً بصورته في ذلك اليوم تحديداً.

مع خروجي في المساء، وجدت بوبي في انتظاري أمام المدرسة، بكوفيّته البُنّيّة المصنوعة من الجلد والمبطّنة بالفراء، كنتُ أعرف أن دروسه تنتهي في الصباح، لذلك سألتُهُ:

- ما الذي تفعله هنا؟ تنتظرني؟ هل عدتَ خصيصاً، لتنتظرني؟

رفع عينَيْه إلى وجهي، باحثاً في عينَيّ عن معنى سؤالي، وليعرف أيّ إجابة أنتظر منه. أمّا يداه، فكانتا تتأرجحان، فاقدَتَيْن للتوازن تماماً تحت

ثِقَل القفّازات الضخمة التي كانت لي في الأصل، وانتقلت إليه بفعل كبر جسمي.

- نعم، (قال في النهاية).

كان يعرف أيّ عقاب صارم من والدَيْه - اللَّذَيْن لا يسمحان له بالابتعاد مسافة كبيرة عن البيت - يمكن أن تُكلّفه فعلته هذه، وبالرغم عن ذلك، قطع الطريق إلى المدرسة فقط لنعود معاً، فقط ليراني، ثمّة أوقات لا يحتاج الناس فيها إلى الكلام، ولطالما كان بوبي واحداً ممّنْ لا يجدون الكلمات.

فوق الجليد، وبدون كلمة واحدة، سرنا في طريق البيت جنباً إلى جنب، كان بين الحين والآخر يبتسم لي، مفتّشاً في عينَيّ عن شيء من التواطؤ أو الامتنان. بالنسبة إليّ، عوّضتْني تلك النظرة عن كل سخريات الصّفّ، أكثر من ذلك، اقتلعتها، ومحتها.

تلك اللحظة، وفيما الثلج يكتم وقع خطواتنا، وغسق ديسمبر (كانون الأوّل) الداهِم بدأ يخفّف من حدّة البياض الباهر في مشهد الطبيعة، تلك اللحظة تبقى بالنسبة إليّ تجسيداً لما كان يمكن أن تؤول إليه مشاعرنا.

اتّفقنا أنا وبوبي، لينجو من العقاب، أن نقول لبابا وماما إنه اعترضني غير بعيد عن المنزل. أمام الباب، رفع يَدَيْه اللَّتَيْن كانتا داخل القفّازات الضخمة، وكرّر مرّة أخرى:

- كانت لكَ، هل تعرف؟ هذه القفّازات ....

سألتْني أمّي في أثناء الغداء:

- سألتُك عدّة مرّات كيف كان يومكَ الأوّل في المدرسة الجديدة، لكنّكَ لا تجاوبني، هل ثمّة أمر سيِّئ؟

لبثتُ صامتاً.

- هيّا، قُل. (أكملَ والدي الذي كان يحتاج دائماً لحدس أمّي، ليلحظ مشاعر الآخرين وهمومهم).

- أنا وبابا نسمعكَ، لذا، احكِ لنا. (بإصرار قالت أمّي).

تركتِ الشوكةَ من يدها، ووضعتْها جانباً. ثمّ أردفت:

- نحن هنا من أجل هذا.

قصصتُ عليهم ما حصل، تلك اللحظات التي رغم قصرها شعرتُها طويلة جدًّاً، عندما وقفتُ جامداً أمام صفٍّ ينتفض من السخرية والهرج.

- فقط؟

تساءلت أمّي متظاهرة أنها لم تُعر للحادثة أهمّيّة كبيرة، ولتجعلها تبدو تافهة أمامي، ثمّ أضافت:

- إنه أمر يمكن أن يتعرّض له أيّ شخص، الأطفال يتصرّفون دائماً بمثل هذا الغباء، ولكنهم لا يفعلون ذلك عمداً، لأنهم لا يفهمون، غداً ستجد أن الأمر قد نُسي تماماً، ثمّ ...

- هل أنتَ واثق بأنكَ لم تستفزّهم بأيّ شكل؟ قاطعها أبي، الذي كان من عادته دوماً البحث عن سبب لكلّ شيء، كان يقول باستمرار إن في كل الأمور على الإنسان أن يُسائل نفسه أوّلاً.

- إنها مسألة بلا قيمة.(أصرّت أمّي). أشياء كثيرة مماثلة حدثت لي أنا أيضاً.

- ولكنْ، ليس لي أبداً!

قال أخيراً بوبي.

من بين كل الأحاديث التي دارت بيننا ليلتها على طاولة العشاء، علق في ذهني شيء واحد، وبقي عالقاً في ذاكرتي طيلة حياتي، كلمات ماما. "إننا نسمعكَ، نحن هنا من أجل هذا دائماً." هكذا شعرتُ أنه مهما يكن ما قد أتعرّض له، سيبقى عندي دائماً هذا البيت، هذا الملجأ.

كان المطبخ بالنسبة إليّ بمثابة كرسيّ الاعتراف، إذا دخلتُهُ، فليس لسبب أقوى من الاستشارة أو الاعتراف، فبينما أساعد أمّي في تنشيف أواني الجلي، ذلك العمل المرهِق الذي كنتُ أتذمّر منه أحياناً، إنما كنتُ سأستاء فعلاً لو أُعْفِيتُ منه، أفرغ لها كل ما تحتويه أعماق قلبي، ورغم أن أبي كان يظهر أحياناً بعض الضيق مفضّلاً قراءة صحيفته أو سماع الراديو على الاستماع لمشاغلي، ظلّت أمّي تستمع لي دائماً، بلا كلل.

في ذلك الوقت، لم أكن قد عرفتُ الكذب بعد، كان بإمكاني أن أقول لهما كل ما يدور داخل رأسي، وأن أُفرغ أمامهما كل أحزاني، كنتُ أستطيع أن أقول لهما كل شيء، إنها نعمة وحظٌ كبير أن تمتلك أشخاصاً، تستطيع أن تحدّثهم بكل شيء عنكَ، لأنكَ إذا لم تجدهم طيلة حياتكَ، ستعيش وحيداً بشكل مروّع.

"احكِ، يا صغيري، نحن نسمعكَ، نحن هنا من أجل هذا."

ولكنْ، إلى متى سأستطيع فعل ذلك؟ ...

(٤)

لم يغيّر التلاميذ طريقة تعاملهم معي، على الرغم من توقّعات أبوَيّ المُطَمئِنة، يقابلونني دائماً بوجوه عابسة، متبرّمة. غير أن مظاهر العداء قلّما كانت صارخة، وكان من النادر أن تكون المهاجمات مباشرة. لكنهم بقوا متشبّثين بدواخلهم برفض عنيد لقبولي بينهم أو محبّتي.

التلميحات حيال شَفَتِي ونحولي كانت دائمة، وكنتُ أجيب بكلّ براءة عن أسئلتهم الكثيرة:

- لقد وقعتُ فوق لعبتي عندما كان لي ثلاثة عشر شهراً من العمر ...

- لعبة! أيّ نوع من الألعاب هذه، لا أفهم!

- لا أعرف. شيء معدني، أتصوّر ...

- نعم، على الأرجح كان كذلك، ليُهشّمكَ بهذا الشكل ...

يكرّر البعض هذا السؤال المتعلّق بشَفَتِي مرّات كثيرات، وكنتُ أقول لنفسي إنهم يمتلكون ذاكرات قصيرة جدّاً.

بمرور الأيّام، ومع رفض زملائي لي الذي كان يتأكّد يوماً بعد يوم، وضعتُ في رأسي هدفاً واحداً: عليّ إجبارهم على قبولي. لم يعد ثمّة

شيء في تلك الفترة أكثر أهمّيّة من ذلك عندي، ولم أعدم سبيلاً أو طريقة لجعلهم راضين عنّي.

إذا نسوا مثلاً في حصّة الجمباز قطعة الطباشير، ليرسموا لعبة بيسبول إضافية على الأرض:

- سأعود، لأُحضر قطعة طباشير. (أقول).

- أوه، لن تستطيعَ إيجادها، سأذهب أنا.

وهذه الإجابة نفسها كنتُ أتلقّاها كلّما سنحت لي الفرصة أن أذهب لإرجاع كرة، قُذفت بعيداً إلى الملعب، قفّازات حارس المرمى، إذا حدث ونسوها، أو أيّ شيء آخر.

- أنتَ؟ لا أثق بكَ. سأذهب بنفسي.

كل جهودي معهم كانت تذهب سدى، بل أكثر من ذلك، كنتُ أشعر أنهم يتعمّدون الإساءة لي، وصَدِّي أكثر.

في شهر ديسمبر (كانون الأوّل) كان الثلج يسقط كل يوم تقريباً، ورغم قُرب نهر ميسوري كانت النّدف المتساقطة جافّة وقاسية، الرياح القوية اجتاحت ساحة المدرسة، بحيث جعلتْها الأنظفَ في كامل العالم! أصبحت الأرض قاسية جدّاً، كما لو أن الإسمنت يغطّيها، وليس الثلج. وفي جوانب أخرى، تحوّلت بعض البقع المُوحِلة المتبقّية إلى ملاعب تزلُّج، تمرح فيها الفتيات. أخريات كنّ يلعبنَ بالحبل، أو الحلقات، أو الأراجيح، لم يكن بإمكان أيّ ولد أن يجرؤ على الانضمام إلى ألعابهنّ، مهما رغب بذلك، خشية أن يضحك عليه أصدقاؤه. في اللحظة التي يعلن فيها الجرس عن

بداية الاستراحة بين الحصص، ينطلق الجميع لِلَعِبِ الألعاب نفسها، في الأماكن نفسها، مع الأصدقاء أنفسهم. داخل هذا الفضاء الصغير يبدو لكَ أن لكلّ شخص دوره، كما لو أنكَ داخل آلة منظّمة الميكانيزمات، حيث لا مكان مطلقاً لأيّ عنصر جديد، مثلي.

يبدأ الأولاد دائماً مباراة بيسبول، أمّا أنا، فدائماً في الزاوية أتفرّج، كثيراً ما طلبتُ منهم ما إذا كان بإمكاني مشاركتهم اللعب، ويجيبونني بحزم وإيجاز، أن الفِرَق مكتملة.

في أحد الأيّام، خرجت الآنسة مارتال لتُلقي نظرة علينا، كانت ترتعش من البرد، ولاحظت جلوسي بعيداً كالعادة بينما البقية يلعبون.

- يجب أن تسمحوا لجيف باللعب معكم، ألاحظ أنكم لا ترغبون بذلك. من أجل صحّته هو أيضاً بحاجة إلى التمارين، إذنْ، كونوا لطيفين، ودعوه يشارككم.

مثل العادة النوايا الطّيّبة كلها للآنسة مارتال، وتدخّلاتها كلها لصالحي، تضيع، إذ انطلقت على الفور صرخات التلاميذ المحتجّة:

- أوه، آنسة مارتال، لماذا؟

- هل هذا ضروريّ حقّاً؟

- أوه، لا!

- ولكنّه لا يعرف. (صرخ ولد ضخم بشَعْر أحمر).

ردّت الآنسة مارتال:

- هل رأيتُمُوه يلعب مرّة؟ لا؟ إذنْ، كيف استنتجتم أنه لا يجيد اللعب؟ هيّا، كونوا لطفاء.

عندئذ شعرتُ بالأعين المليئة بالتّحدّي كلها مُسلّطة عليّ، على الدخيل الذي جاء لإزعاج المجموعة، ولكنْ، عليّ الاعتراف أنه لم يكن عليّ الانفعال، فللأسف لم أكن واعياً كفاية أنني أمام لحظة مصيرية، وأن انفعالي سيحول دون نجاحي فيما سأفعله.

مرّروا لي الكرة، فأضعتُها، انطلق الصراخ، التصفيق والتصفير. مرّروها لي مرّة ثانية ومرة ثانية شقّت عصاي الهواء، ولم تلمس الكرة، التصفير من جديد وصرخات الاحتجاج:

- برافو! رائع!

- يا له من بطل!

استمرّ الأمر هكذا، بلا أيّة نتيجة، حتّى جاء دور زميل آخر. الفريق المنافس أشبعني شكراً بينما فريقي يحتجّ، زاعماً أن الجولة التي لعبتُها لا يجب أن تُحتسَب في المباراة. ولكن الجميع بقطع النظر إلى أيّ فريق ينتمون، بدوا سعداء، لأن توقّعاتهم بفشلي كانت في محلّها.

أمّا الآنسة مارتال، فلم تصرّ عليهم بعد ذلك أبداً. ولم تتّخذ أبداً أيّ عقوبة صارمة وجدّيّة تجاه أيّ منهم. حذرها هذا كان متأتّياً حسب تقديري من خوفها أن تلقى نفس مصير المعلّمة التي قبلها، والتي سمعت من التلاميذ أنها كانت صارمة، وأن مجموعة من الأمّهات قمنَ بالاشتكاء عليها بعد أن زعمنَ أنها عصبية جدّاً، ولا تصلح، بالتالي، لمهنة التعليم.

منذ ذلك اليوم، تمّ تسميتي رسمياً "الذي لا يعرف"، في كل مرّة يبدؤون فيها بتكوين الفِرَق، كانوا يتقاتلون حرفياً لتفادي بعض العناصر غير المرغوبة، والتي كنتُ واحداً منها.

إنه لأمر غريب حقّاً، فهذا الإجماع على رفض الآخرين، نحن، المُقْصين، كان يقوّي وِحدتهم، ويزيد في تعاونهم. هل كانوا يتخاصمون فيما بينهم؟ حسناً .. نعم، ولكنْ، ما إن يقع نظرهم على واحد منّا، وفوراً تجدهم متّفقين ومتصالحين، لم يكن لأيّ موضوع خلاف قيمة أمام عدائهم الصلب تجاهنا، والذي كان يوحّدهم بقوّة، كنّا ببساطة متنفّسهم الوحيد لتصعيد كل مشاعر الكراهية، وهدف تصويب لكثير من الأذى المفرِط.

بالرغم من ذلك، لا يمكنني الزعم أن تلك الكراهية كانت مطلقة، يمكن القول إنها كراهية صغيرة، لطيفة، وبلا إدراك تامّ، لكنها مؤرقة. كانوا يقولون دائماً مازحين، وغالباً بنبرة تحمل من الفكاهة أكثر ممّا تحمله من عداوة:

- أوه! هذا لا يعرف.

- هو لا يستطيع.

- أوه، لا، إلا هذا، لا نريده بأيّ ثمن، "الشَّفَة الكبيرة" خذوه مجاناً!

بسرعة مدهشة، استطاعوا اختراع هذا الاسم: "الشَّفَة الكبيرة". لم أشعر قطّ بشعور الوحدة المخيف ذاك إلا عند هذه المواقف التي تحصل قبل اللعب، ردود الفعل تلك، وتلك الصرخات الرافضة.

ولكنْ، حدث في إحدى المرّات استثناء، فتأثّرا بالأحداث الراهنة، قرّروا أن يلعبوا حرباً، واحتاجوا إلى موتى، أعطوني - من ضمن آخرين - هذا الدور

بلا استشارة، لأنه لم يكن ثمّة متطوّعون، أحدهم قال:

- اسمع، سنستمتع كثيراً بلعبة الحرب، اتّفقنا؟ فقط عليكَ أن تلتزم بالسقوط أرضاً كالميّت عندما تلمسكَ الكرة.

- أوه! ماذا! السقوط على الأرض مؤلم وقاس جدّاً.

- لا مشكلة، إنها قواعد اللعبة!

في أثناء اللعبة، وكلّما لمست الكرةُ أحدَهم، كان يرفض الوقوع، تنطلق الصرخات:

- أنتَ تغشّ، لقد قتلتُكَ!

- لا، أبداً، الكرة بالكاد لمستْني.

أمّا أنا، فعلى عكس الآخرين، ولأنال رضاهم وطمعاً في دعوتي مرّات أخرى لِلَّعب معهم، سقطت عند أوّل لمسة، متأوّهاً، متلوّياً قدر المستطاع، وفي النهاية همدتُ فوق الثلج مثل ميّت حقيقيّ، منتظراً أن يأتوا لإخباري بانتهاء الدور والاستعداد لجولة ثانية.

في لعبة البيسبول، يكون دوري أقلّ أهمّيّة، إذ أقف دائماً وراء السياج الذي يطوّق الملعب، منتظراً بفارغ الصبر أن تُقذَف الكرة خارجه ما يعطيني الفرصة، لِلَّحاق بها، وإعادتها. تلك اللحظات كانت تملؤني بسعادة غامرة، تجعلني في بعض الأحيان أضيّع تركيزي، فلا أنجح في قذف الكرة من فوق السياج، وهو ما ينتج عنه هرج وضحك كثير.

- إنكَ تتحدّث عن لاعب فذّ!

- برافو! برافو!

- إنه لا يعرف حتّى كيف يعيد كرة، يا له من أحمق!

كان لي، رغم ذلك، فائدتي الصغيرة، وكثيرون ليضمنوا تواجدي الدائم في محلّ استقبال الكرات الضائعة يتنازلون ويمنحوني كلمة شكر صغيرة، يهمسون لي بها مرغمين، عندما نكون وحدنا فقط.

وراء سياجي، لم أكن أتوقّف عن تشجيع اللاعبين، بالحركات أو الصرخات:

- هيّا! اركض بسرعة، بسرعة أكبر، سدّد جيِّداً!

كنتُ أحرص جيِّداً على أن تكون تلك الصرخات بلا حماس كبير، وأن لا تكون عالية، خشية أن ينهرني أحدهم، كما حصل ذات مرّة قائلا:

- أنتَ أيّها الأحمق! اخرسْ، إنكَ تُشتِّت تركيزنا!

(٥)

في البداية، لم أكن أعرف ويلي إلاّ من بعيد، لم يكن يشترك قطّ في استعراضات السخرية، مع هذا، كان واحداً من أكثر الطلاب شعبية، كان يعرف جيِّداً كيف يجلب احترام الآخرين له (بل حتّى التّملّق، ذلك أنه كان لاعب بيسبول ماهراً) محافظاً على استقلاليّته، مُظهِراً كثيراً من النضج.

لم يجرؤ أحد على تلقيبه "الأذنَيْن الكبيرَتَيْن" رغم أنه لقب في محلّه تماماً بالنسبة إليه أكثر ممّا كان لقب "الشَّفَة الكبيرة" بالنسبة إليّ، لماذا؟ تقديراً لمهاراته؟ كلا، فالسبب الأبسط، والأكثر بداهة، يكمن في شعور يُفترَض أن لا يختصّ به البشر: الخوف.كان ويلي أقوى من أقوى الأقوياء، وهذا كل شيء.

جاءت أخيراً تلك الظهيرة التي لن أنساها أبداً. في فترة الاستراحة بين الحصص، قرّر الأولاد، بشكل استثنائي، أن يلعبوا لعبة "الرجل فوق الجبل" عوض البيسبول. في الطرف الآخر من الملعب، ليس بعيداً عن المكان الذي تلعب فيه الفتيات لعبة الحجلة، كان ثمّة منحدر حادّ جدّاً، يفترض أن انحداره كان في الأصل أقلّ حدّة إلا أنه وبعد القيام بأعمال تسوية الأرض لجعلها في مستوى متقارب، أُخذت منه الكثير من التربة، فنتج في النهاية هذا الانحدار الكبير في هذه الجهة، حيث لا ينمو عشب، بسبب لعبنا، وتزلّجنا، وجرينا.

أعلى المنحدر، كانت هنالك أشجار دردار معمّرة ، جعلت أعمال الحفر جذورها عارية، هنالك جلستُ منزوياً: فقد رفضوا أن تشاركهم "الشَّفَة الكبيرة" ألعابهم، كالعادة. كنتُ أتأمّل حيناً الجذور الشرسة والمتشابكة، وحيناً الأولاد الذين يكافحون. اللعبة كانت في أوجها، الأولاد يلهثون، ويطلقون الصرخات والدمدمات المتذمّرة:

- خذ، سوف أريكَ!

- غشّاش، ستدفع ثمن هذا!

لعبة "الرجل فوق الجبل" تقوم على جَرّ المدافعين من أعلى المنحدر، والنزول بهم إلى الأسفل، ومن ثمّ احتلال مكانهم.

ارتعدتُ من البرد، فأدخلتُ يَدَيّ في جيبَيّ، وبينما كنتُ أغادر الجذر الضخم الذي كنتُ جالساً فوقه، لفت نظري الجذع، والأغصان بدءاً بالأقرب إليّ حتّى قمّة الشجرة. تلك الفروع السوداء والعارية فوق زرقة السماء الفاترة جعلتْني أفكّر في لوحة النظام الشعري الموجودة في القاموس الكبير الذي في الصّفّ، ولأن علاقتي بالرّبّ كانت مشوّشة منذ آخر مرّة، حرصتُ على طرد الفكرة الدائمة بأن هذا الخشب الرائع لشجرة الدردار، هذه السماء الجميلة، كل هذا هو من صنعه أيضاً.

- إلام تنظر؟ هل أنتَ على سطح القمر؟ تعال والعب معنا.

التفتُّ جهة الصوت، هذا الذي تكلّم كان ويلي بخصلة شَعْره الشقراء التي تكاد تدخل في عينه، بأذنَيْه الكبيرتَيْن، والمحمرَّتَيْن بأثر البرد واللعب.

- هذا الكلام لي؟! (سألتُ متعجّباً).

- طبعاً، تعال!

كنتُ متفاجئاً وسعيداً بطريقة، جعلتني أبقى جامداً كالأبله، متأمّلاً إيّاه فقط بنظرة حزينة، سعادتي وصلت إلى درجة عجزتُ معها عن الابتسام. بعض الأصدقاء ممّنْ سمعوا دعوة ويلي لي، اعترضوا، وبدؤوا في الاحتجاج، لكنهم لم يجرؤوا على الإصرار.

- إذنْ ... ماذا تنتظر؟ ستأتي أم لا؟

فجأة وبحركة جنونية تقريباً، ذلك أني بصعوبة كنتُ أميّز ما أفعله وقتها، هُرعتُ للهجوم على ويلي الذي كان يقف أعلى المنحدر ممثّلاً الرجل فوق الجبل مدافعاً عن منطقته بكامل قواه، التففتُ حوله حتّى حاصرتُهُ، وكتّفتُ يَدَيْه وراء ظهره ضاغطاً عليه بقوّة كبيرة، محاولاً جعله يتألّم قليلاً، قليلاً، وليس كثيراً، مثل جرو يزمجر بوجه أخيه، ويعضّه، ولكنْ، لأجل ملاعبته، ليس أكثر.

- أوه، انظروا! إن جيف يخدعنا بمظهره الصغير. (صرخ بمجموعة الأصدقاء)، ثمّ أضاف:

- إنه أقوى ممّا ظننا!

تدحرجنا معاً على المُنحدر، وبدا وكأنني أنا الذي، وحدي تماماً، جرَرتُهُ إلى الأسفل. لكنْ، بجانبنا لم يعطِ الرفاق الذين راحوا يتمادون في ألعابهم انطباعاً بأنهم لاحظوا ما حدث. لكن الحادثة جعلتهم يتغيّرون نوعاً ما، فبالرغم من حفاظهم على المسافة بيني وبينهم، بدؤوا في التقليل من عدائيّتهم.

لم أفهم مطلقاً السبب الذي دفع ويلي لمناداتي ذلك اليوم، من المؤكّد أن ذلك كان بدافع الشفقة، ولكنْ، ربمّا أيضاً لإثبات تميّزه واستقلاليّته عبر هذه الحركة التي لم يكن ليجرؤ أي شخص آخر، يقيم حساباً لأحكام المجموعة، أن يقوم بها. غير أنه فعل ذلك بالخصوص، لأن قلبه أخبره إلى أي حدّ كنتُ وحيداً.

لابدّ وأن تعبيري عن سعادتي كان مُربِكاً إلى حدّ كبير، لذلك تفادى النظر في عينَيّ، في الوقت نفسه، كان يغالب ابتسامة ككلّ أولئك الأشخاص الذين يتظاهرون بالتّرفّع عن أن تُقال لهم كلمة "شكراً".

منذ تلك اللحظة، بدأنا في الاقتراب من بعضنا، ومع نهاية فترة الاستراحة، دخلنا معاً إلى الصّفّ. بعد ساعات، ومع انتهاء الحصص، وخروجنا من المدرسة، وبما أنني كنتُ قد سألتُهُ سابقاً عن مكان سُكناه، مشيتُ في اتّجاه بيته الواقع في الجهة الشعبية نفسها من شارع "فران ستريت"، حيث كنتُ أسكن أيضاً، ولكنْ، ليس قريباً منه، جعلني هذا أحيد بطريقة ما عن طريق بيتي، وعلى أمل أن يعترضني، تباطأتُ قليلاً في السير، وبعد وقت قليل، لمحتُهُ غير بعيد خلفي، غير أني أُصبتُ بخيبة أمل، ذلك أنه كان برفقة أحد الزملاء الذي كان يُدعى رونالد، وهو ولد يغطّي الزغب الأسود خدوده، ولا ينفكّ يكرّر أن والده طبيب، وقد كان كالآخرين يدعوني بالشَّفَة الكبيرة، ولطالما سخر منّي، قرّرتُ، مع ذلك، أن أنتظرهما حتّى يلحقا بي.

- ألم تقل لي منذ قليل إنكَ تمتلك درّاجة، يا جيف؟ (سأل ويلي).

- نعم، ولكنني أحياناً أتركها في البيت.

كان ذلك صحيحاً، فمن وقت لآخر، كنتُ أحبّذ الذهاب إلى المدرسة سيراً على القَدَمَيْن غير أنني في ذلك اليوم تحديداً قدمتُ إلى المدرسة مستقلاً درّاجتي. رحتُ أتخيّل المسرحية التي سألعبها أمام والدي، لأُقنعه أني نسيتُها فعلاً في المدرسة، ولم أتعمّد تركها.

بينما كنّا نمشي ثلاثتنا معاً، لم أستطع التّكلّم كثيراً، شعرتُ أنني غريب نوعاً ما عن تلك المحادثة حول لعبة البيسبول، وعن ربطات العنق المختلفة التي عليهم تعلّمها قبل اجتماع فريق الكشّافة القادم، وطوال الطريق كانا يحاولان تجريبها، بواسطة قطعة حبل صغيرة.

كنتُ أشعر بالارتياح دوماً بالقرب من ويلي، فقد كان يمنحني ذلك الانطباع المحبّب والمرحّب، الجديد عليّ تماماً والذي لطالما تمنّيتُهُ بالانتماء إلى المجموعة.

أحياناً في أثناء الحديث عن البيسبول:

وأنتَ، جيف، ما رأيكَ؟ هل تعتقد أن "سومرست تايجر" فريق جيّد؟ مع هذَيْن اللاعبَيْن الجديدين "ماسون" و"ليجيت" أعتقد أنه سيحقّق شيئاً في الموسم القادم، ألا ترى ذلك؟

وأحياناً:

- اسمع، جيف، سآخذكَ معي يوماً لحضور أحد اجتماعات فريق الكشّافة، مَنْ يدري؟ قد ترغب أن تصبح عضواً، إنه أمر مثير، صدِّقني، رحلات، مخيّمات ...

لم يكن رونالد في المقابل يبذل أيّ جهد لقبولي، رغم ذلك شعرتُ

أنه لا يرفضني، أميل للقول إن طيبة ويلي المعدية قد أصابتْهُ بطريقة ما.

في أثناء نقاشهما حول ربطات العنق المزدوجة والعادية فَقَدْتُ تركيزي، وسرحتُ بأفكاري بعيداً، عدتُ إلى تلك اللحظة التي طوّقتُ فيها "الرجل فوق الجبل" بكلتا يَدَيّ، واللحظة التي صرخ فيها:"انظروا لجيف، إنه أقوى ممّا ظننا!" ردّدتُ بيني وبين نفسي هذه الجملة البسيطة، والتي كانت تحمل كثيراً من الجمال. كم كنتُ فخوراً بمعرفة ويلي! كم كنتُ سعيداً في ذلك اليوم!

- هل عدتَ إلى سطح القمر؟ (سألني ويلي).

- ماذا؟

- كنتُ أسألك إن كنتَ تجمع الطوابع البريدية؟

- نعم، أنتَ أيضاً؟ هل ستريني في أحد الأيّام طوابعكَ؟

- إن كنتَ تريد، فلمَ لا؟! وإن كان لديكَ أكثر من نسخة لنفس الطَّابَع، فباستطاعتنا التبادل ... هل عندكَ طوابع غواتيمالا، الطيور الاستوائية؟

- لا. (أجبتُ بعد تفكير).

ثمّ سألتُ:

- وأنتَ؟ نعم؟ أرغب كثيراً برؤيتها. و"النويتا" لديكَ منها؟ لا أعرف، هل تعرفها؟ هذه طوابع روسية.

- ما معنى "نويتا"؟ (قاطعني رونالد).

- كلمة يستعملها الروس للتعبير عن الطوابع البريدية.

- غريب!

- ولكنْ نعم، إنها مثل كلمة "بوست" التي تعني طَابَع في اللغة الفرنسية، ومثل كلمة "سيومي" في الفنلندية.

وقبل أن يحتجّ رونالد من جديد، التفتُّ إلى ويلي قائلاً:

- ما هو أقدم طَابَع لديكَ؟

- نمساوي، إنه ...

- ماذا؟ هل تقصد طَابَعكَ الشَّفَّاف؟ (قاطعنا رونالد مجدّداً)، وأردف:

- أوه، نعم، أعرفه. ولكنه ليس شفَّافاً تماماً.

- بلى، تقريباً.

- كم عمره؟ إلى أيّ سنة يعود؟ (سألتُهُ).

- لا أعرف بالضبط. أجاب ويلي. ١٨٦٥ ربمّا أو في هذه الحدود.

أعدتُ التاريخ، متعجّباً من تأثيره الغريب عليّ:

- أوه! إنه قديم جدَّاً، ١٨٦٥...

- ولكنْ ... (فجأة انتبه ويلي) وأكمل: هل هذه وجهتكَ فعلاً؟ أين تسكن بالضبط؟

عندما أخبرتُهُ عن مكان بيتي، اندهش، وقال:

- كان عليكَ أن تتّجه يساراً، لقد أضعتَ وقتاً طويلاً هكذا، وابتعدتَ جدّاً!

أردتُ أن أقول له إن ذلك لا يهمّني، ثمّ تراجعتُ خشية أنه ضجِر منّي، فبدأتُ – آسفاً في أعماق نفسي - بالتمهيد لتركه وأخذ طريقي الصحيح إلى البيت.

غير أن ويلي استوقفني ممسكاً بذراعي، ثمّ فتّش مسرعاً في جيوبه، وقال:

- انتظر، إنني أبحث عن ... آه، ها هو، خذ هذا من أجل مجموعتكَ، إنه طَابَع "باغود"(*).

- "باغود"؟

- حسناً، أقصد ياباني.

- أوه! شكراً!

أخذتُهُ بعناية، وفي طريق العودة وحيداً، حدّثتُ نفسي بأن رونالد يمتلك أيضاً حظّاً كبيراً كونه صديقاً لويلي. رحتُ أرسم مخطّطات كثيرة للصداقة، من دون أن يحول ذلك دون قلقي من وجود رونالد الذي تساءلتُ إلى أيّ حدّ بإمكانه إزعاجنا.

فجأة اعترتْني رغبة في الركض والركض. صوت الثلج تحت حذائي بدا لي غير مألوف هذه المرّة، صوت جميل وقريب، الهواء البارد لم يعد لاذعاً كالعادة، شعرتُ كما لو أنه يمسح على وجهي بحنان. أخيراً توقّفتُ،

---

*) باغود: نسبة إلى باغودا، وهو معبد بوذي.

ووسط لهائي ارتميتُ على كومة ثلج كبيرة متكدّسة أسفل أحد الجدران. تصاعدت بداخلي رغبة جنونية في الضحك، ولكنني كنتُ مستنفداً جدّاً، لأستطيع تحريرها. أردتُ أن أصنع كرات غير أن الثلج كان جافّاً للغاية، لم أجد سوى أن عبّأتُ كفوفي به، ثمّ رميتُهُ بكل ما امتلكتُ من قوّة، طار عالياً في الهواء، ثمّ سقط بلطف على كتفَيّ.

نهضتُ، والتقطتُ حقيبتي، على الرصيف، كنتُ أفضّل دوما الطرق الملتوية، أكثر ممّا أفضل الرصيف، تلك الطرق التي لا يعرفها أحد سواي والتي تقطعها بعض الحدائق الخاصّة، بأسيجتها الكبيرة التي كنتُ أنزلق من تحتها بسهولة نظراً لصغر حجمي ونحافتي.

في إحدى الحدائق التي كنتُ أعرف صاحبتها العجوز من بعيد، رأيتُ لطخة وردية وسط الثلج، لقد كانت قطعة من الكوارتز، رأيتُ أنها تمثّل جزءاً من صفّ حجارة مرصوفة بشكل مربّع، حيث وُضعَتْ، لتُحيط ببعض الورود الضخم حجمها. انخفضتُ لأرى قطعة الكوارتز عن قرب، ورأيتُ أن هذا النوع من الحجارة يمتلك قمّة مدبّبة، تشبه قمم الجبال التي في كتاب الجغرافيا.

كم سيكون بوبي سعيداً بضَمّ هذا الحجر إلى مجموعته! تردّدتُ في البداية في أخذه، ثمّ قلتُ لنفسي إن صاحبة الحديقة ستجد حتماً حجراً آخر، تضعه في مكانه، فرُحتُ أحاول اقتلاعه بصبر نافد، غير أن حجر الكوارتز الوردي اللون الغائر عميقاً داخل الثلج رفض الاستجابة لمحاولاتي.

- صباح الخير، يا صغيري.

كانت هذه صاحبة البيت التي خرجت، ووقفت عند الباب، فكّرتُ أن ألوذ بالفرار، لولا شعوري بنوع من الرّقّة في صوتها، قد يجعلني قادراً أن أطلب منها أيّ شيء:

- سيّدتي، أنا ...، أقصد أخي بوبي مولَع بالأحجار الجميلة، إنه يجمعها و...

- وأنتَ تريد أن تُهديه هذا الحجر؟ حسناً، خذه، وأعطِه له.

- أوه! شكراً .. ولكنْ ...

شعرتُ لوهلة بأنني أخون نفسي، ولكنني قلتُ رغم ذلك:

- لم أستطع أخذه، إنه ملتصق بالأرض.

تقدّمت المرأة العجوز ببطء، وتناولت رفشاً من إحدى الزوايا، واقتلعت حجر الكوارتز الجميل. وبينما أسير مبتعداً، كنتُ ألتفت من حين لآخر لشُكرها من جديد، ظلّت واقفة قرب الباب، تتأمّلني طويلاً بحنان عجيب.

صارفاً النظر إذنْ عن الفراغ الذي خلّفتْهُ في صفّ الأحجار المحيط بالأزهار، حملتُ قطعة الكوارتز إلى المنزل، مبتهجاً بفكرة تقديم هدية لأخي، بوبي الذي لم يكن أقلّ سعادة منّي:

- إنه أجمل حجر في مجموعتي! أوه، يا إلهي، انظر كم هو جميل!

كان ثمّة رفّ، تقريباً أسفل الدرج المؤدّي للطابق الأرضي، مخصّص لأحجار بوبي، لأن أمّي قالت إنه إذا وضعها في غرفته، فستضرّ بالأثاث والأرضية.

انضمّ الكوارتز إذنْ إلى مُتحف الأحجار الصغير، والذي كان يضمّ أحجاراً بمختلف الأحجام والأنواع، أحجاراً رملية، وأحجاراً من الصوان، رخامية ومعدنية، بالإضافة لبعض الأصداف، أنا مَنْ بدأ في تشكيل هذه المجموعة أوّلاً، ولكنني تركتُها له عندما انغمستُ في عالم الطوابع.

- أين عثرتَ عليه، يا جيف؟ (تساءل والداي اللذان يحبّان دائماً أن يعرفا).

بدأتُ في الشرح حتّى لاحظتُ شيئاً من الريبة والشّكّ عندهما، قلتُ مجروحاً نوعاً ما:

- هل تظنّان أني قمتُ بسرقته؟

- ولكنْ، لا، جيف. (احتجّت أمّي بصِدْق). ثمّ أردفت:

- إننا نشعر بالفضول فقط، وهذا كل شيء، على العكس، تأثّرتُ كثيراً بما فعلتَهُ، أن تُفكّر بأخيكَ، أنتَ طيّب، وهذا جيّد جدّاً.

- هذا ما رأيتُهُ دائماً. (قاطعها أبي)، ثمّ أكمل:

- إنّ لدينا فعلاً ما يكفي من الأسباب لنكون فخورين بابنَيْنا، هنالك الكثير من الأطفال الذين يقومون بأعمال سيّئة هذه الأيّام، من وقت قريب، قرأتُ شيئاً في هذه الصحيفة ... انظري، ها هي، انظري لهذه المقالة، إنها تتحدّث عن ثلاثة منحرفين في الحادية عشرة من أعمارهم، أحد عشر عاماً، هل تسمعينني؟! كسروا بَلُّور نوافذ بيت فخم، هكذا بلا سبب، فقط للتسلية، لو كان عندي أطفال كهؤلاء، كنتُ سأُهشّم رؤوسهم بنفس الأحجار التي رموها.

هذا الكلام وأيضاً مسحة الجدّيّة التي كانت تُغلّفها، ملأتني بشعور الخوف.

كان والدانا فخورَيْن فعلاً ببوبي وبي، فكثيراً ما مدحانا، وتفاخرا بنا أمام أصدقائهم والجيران، غير أن فضول أمّي المفرط قادنا إلى مكان آخر:

- تبدو سعيداً اليوم، جيف، عيناكَ تلمعان، ثمّ إنكَ نشط بشكل غير طبيعي، يبدو أن الأوضاع أصبحت أفضل في المدرسة، الأصدقاء أصبحوا أكثر لطفاً معكَ، لا؟

- ربمّا ...

أوّل ما خطر لي كان أن أُبقي أمر صداقتي بويلي سرّاً، ثمّ فجأة، لم أعد قادراً أن أسيطر على نفسي مطلقاً، وبطريقة مشوّشة وكلمات غير منتظمة، حكيتُ حادثة "الرجل فوق الجبل" والطَّابَع "الباغود".

شعرتُ بأن سعادتي مُعدية، ذلك أنها انتقلت إلى والدَيّ أيضاً، وشعرتُ أنهم لا يطلبون سوى سماحي بمشاركتهم لي تلك الفرحة، وأنهم "إن كانوا هنا دائماً" - مثلما قالت أمّي ذلك اليوم - في الأحزان، فلا بدّ أن يكونوا هنا أيضاً في الأفراح.

- أترى؟ كل شيء يسير نحو الأفضل. أوه، يا صغيري جيف، كم أنا سعيدة من أجلكَ! (قالت أمّي بحبور)، بينما سحبني أبي، لأقف أمامه وبيده الكبيرة والحنونة داعب شَعْري.

لقد أثّرت بهم طيبة ويلي هم أيضاً، هكذا أمست تلك الحركة البسيطة التي قام بها تجاهي هذا اليوم مضاعفة التأثير، فقد مسّتْنا جميعاً بوبي، أبوَيْنا، وأنا، جميعنا كنّا محطّ تأثّر وامتنان.

(٦)

مضت بعض الأسابيع منذ انتقالنا إلى المنزل الجديد. اختفت الأكياس من غرفتي، والأرضية أصبحت مغطّاة بسجّاد، تُزيّنه مربّعات زرقاء وبيضاء، اختارته أمّي، أمّا النوافذ العشر، فقد عَلَتْها ستائر، لونها "بيج" حاكتها هي أيضاً بماكينة الخياطة،وعلى الجدار الوحيد الخالي من النوافذ، عرضت لي رسماً بالباستيل، يمثّل ثلاث أزهار شاي. كان هوس أمّي رسوم الأزهار بالباستيل، تُنجزها على ورق مخملي مستورَد من فرنسا بكلفة باهظة، وذاك تَرَفها الوحيد.

أبي أيضاً كان يمتلك موهبة، أيّام الآحاد كان يحبّ لعب دور النّجّار في القبو. بتنسيق عدد هائل من الموادّ، كان ينجح في ذلك كثيراً. انتهى مؤخّراً من صنع منضدة صغيرة أهداني إيّاها. وأوّل ما قمتُ به هو تخصيص درج كامل لطوابعي. غالباً عندما أتأمّل ألبومي، صفحة إثر صفحة تغمرني السعادة، كلّما تخيّلتُ أني سأصبح ذات يوم "جامع طوابع" كبيراً، مثل السّيّد ساندت، جارنا القديم الذي ومنذ انتقالنا إلى هنا أصبحت المرّات التي أراه فيها قليلة جدّاً، لأنه عليّ إذا أردتُ زيارته أن أقطع كامل شارع سومرست.

كان السّيّد ساندت ساعاتياً عجوزاً ومنعزلاً. امتلك محلاً في قلب المدينة شغله على امتداد أربعين عاماً. غير أنه ومنذ بلوغه سنّ التقاعد،

ومن ثمّ، موت زوجته تحوّل إلى شخص حزين ووحيد. وفي علاقة بأصوله الألمانية، كان يمتلك نظرة زرقاء، صريحة ومليئة بالثقة، وشارباً أبيض فضّياً كبيراً، كشوارب كل الرجال كبار السّنّ الذين كانوا في الأصل شقر.

وجهه المربّع يذكّرني دائما برأس، لطالما رأيتُها على طوابعي الألمانية. قلتُ له ذلك مرّة، فضحك كثيراً، ولم يوافقني، وقال بلهجته المميّزة:

- ولكنْ، لا، أنا لا أمتلك رأس "هايندينبيرغ".

اغتنم فرصة فتح هذا الموضوع، ليستبقي زائره الشّابّ بعض الوقت أكثر، وهنا أراني داخل مجموعته، سلسلة من الطوابع التي تحمل صورة الشخص الذي بدا لي أنه مطابق له.

ظلّ بالرغم من السنين والنظام القائم آنذاك متعلّقاً جدّاً ببلده، وعلى نحو خاصّ بمدينة "لوباك" مسقط رأسه، كان يمتلك تشكيلة رائعة من القِطَع النقدية الذهبية الألمانية، وعندما أطلعَني على "الطالر"(*) الذي يعود للقرن الخامس عشر، أو "الفلورين"(**) لسان جورج، وهو يقتل التّنّين، كان يعطيني معلومات دقيقة حول أصولها جميعاً، مع شرح شيّق ومثير. لم أكن أجرؤ على مَسْكها إلا بواسطة الرقاقة، لأن السّيّد ساندت كان يقول دائماً إن أولئك الذين لا يفعلون ذلك "لن يعرفوا طيلة حياتهم كيفية التّحكّم بالقِطَع النقدية".

في إحدى المرّات التي كنتُ فيها منتشياً كثيراً بقطعة طالر من لوباك،

---

*) الطالر: قطعة نقدية جرمانية فضّيّة.

**) فلورين: قطعة نقدية ذهبية تعود للقرن الثالث عشر، كانت عملة موحّدة لكل الدول الأوروبية، على غرار الأورو اليوم.

تعود لسنة ١٥٥٧ (ما زلتُ أتذكّر التاريخ جيِّداً)، قال لي السّيّد ساندت بمسحة قلقة:

- ألاحظ كثيراً أنكَ مولع بالأشياء القديمة. ربمّا لهذا السبب تأتي لرؤية هذا الشيء القديم، الذي هو أنا.

ثمّ أضاف ربمّا ليتجاهل قصّة عمره أو خشية أن أفقد حماسي في المجيء لزيارته:

- هل تُحسِن التّزلّج؟ لا؟ يجب أن تتعلّم.

وراح يحكي لي مرّة أخرى، كيف يذهب كل سبت إلى حلبة التّزلّج الكبيرة المغطّاة، ويقضي هناك كامل فترة ما بعد الظهيرة.

- أنتَ نحيف بعض الشيء، تحتاج إلى التمارين.

لقد كنتُ بلا شكّ واحداً من الأشخاص النادرين، الذين مازالوا مصرّين منذ عام ١٩٣٩ على رؤية هذا السبعيني الألماني. هل كنتُ أفعل ذلك فقط من أجل الطوابع البريدية والقِطَع النقدية؟ لا أظنّ، لأنه كان بإمكاني العثور على مجموعات أجمل دون الاضطرار لتضييع ساعة كاملة في عبور المدينة. يقال إن المرأة العجوز المقابلة لنا تمتلك مجموعة رائعة، ولكنها لم تكن وحيدة داخل الدنيا. بالتالي، فإن ذهابي للسّيّد ساندت، كان ببساطة وحسب ظنّي من أجل تلك النظرة الزرقاء التي تلتمع في عينَيْه كلّما لمحني قادماً، أكثر ممّا كانت من أجل "الشيء القديم الذي كانه". واستنتجتُ أنه اليوم، وبسبب هذه الحرب، أصبحت جنسيّته تمثّل له شيئاً مماثلاً لما تمثّله لي نَدبَتي.

لم يكن السّيّد ساندت يهبني فقط ذلك الشعور بتكامل وحدتنا، بل كانت زياراتي له تفتنني وتمنحني شكلاً غير طبيعي من أشكال الهروب. أهرب إلى الماضي ولأوروبا السّيّد ساندت، عندما أدخل إلى تلك الشّقّة المظلمة، المليئة بالصور وقِطَع الأثاث والساعات القديمة، وبكُتُب المحاسبة الكبيرة التي يحمل كل واحد منها فوقه تاريخاً مذهّباً، هنا أيضاً، وكما يحصل لي مع الطوابع أو القِطَع النقدية، كانت تلك التواريخ تأسرني: ١٨٩٧..١٩٠٤... كنتُ أنجذب بشكل فظيع إلى أعداد عادية: ١٩٢٦.. ١٨٨٨.. ١٩١٢... حيث كنتُ أعيد رسمها أمامي بكل الأشكال الممكنة، في تلك الأوقات التي يشرد فيها ذهني داخل الصّفّ. "كنتُ أقول لنفسي إن السّيّد ساندت قد عايش بالضرورة كل تلك السنوات!".

لطالما حلمتُ بتلك الطوابع، كل واحد منها كان يفتح أمامي أبواباً من الخيال والتّصوّرات، كانت الزنجيات المطوّقات بقلائد الفاكهة تحكي لي الكثير حول أفريقيا، كلّما تأمّلتُ تلك الطوابع التي تعود إلى دولة التشاد. بحار يعتمر قبّعة البحّارة المثلّثة الشكل يُدخِلني إلى جزر "كوك"(*) ، صورة الملكة فيكتوريا تحملني في الاتّجاهات كلها، هذا الوجه المهيب الذي لطالما سحرني بألوانه المختلفة: الوردي، القرمزي، العاجيّ ... حيث تُبرز المجلاتُ أدقَّ تفاصيله. لم أكن أجتاز الفضاء فحسب، بل أعبر الزمن أيضاً! كانت الطوابع تعطيني مدخلاً للقرن التاسع عشر الذي أُحبّ تسمية دائماً "القرن الثامن عشر"، لأن التواريخ التي تبدأ بهذا الرّقْم: "١٨" خلابة أكثر، ومختلفة أكثر من "١٩" المبتذل.

أتأمّل يومياً طَابَعي الجديد، "الباغود" الياباني، وبدأتُ في استخدام

---

*) جزر كوك: مجموعة جزر في جنوب المحيط الهادي. تقع في منتصف المسافة بين نيوزيلندا وهاواي، تمّ تسميتها على اسم المستكشف جيمس كوك مكتشف نيوزيلندا والساحل الشرقي من أستراليا.

نفس تعبير ويلي "باغود". كلمة "ياباني" نفسها كانت تحمل في نظري دلالة طوابعية أكثر منها سياسية. كنتُ بالطبع عارفاً بشكل مجمل بالأحداث التي تحدث في العالم، ولكن "باغود" بالنسبة إليّ، كانت طَابَعاً فقط، طَابَعاً أعطاه لي ويلي. عند لمسه أو النظر فيه أعود قليلاً إلى "الرجل فوق الجبل" وتعاودني تلك المشاعر الدافئة التي اعترتني عند سماع هذه الكلمات: "انظروا، جيف أقوى ممّا ظننا بكثير!" والتي قمعت بشكل تدريجي كراهيةَ الصّفّ.

بدأتُ في تخيّل اليوم الذي انتظرتُهُ بفارغ الصبر، اليوم الذي، وبفضل ويلي، سيتقبلني فيه زملائي، اليوم الذي سأصبح فيه محبوباً من قِبَل الجميع، اليوم الذي سيُسلّمون عليّ فيه بابتسام وترحيب، تماماً كما يُسلّمون على ويلي، بدل أن يواصلوا الوشوشة فيما بينهم، ومعاملتي على أنني غريب، وبدل الاستمرار في مناداتي بالشَّفَة الكبيرة، ودسّي في الفريق المنافس كأيّ عائق آخر.

(٧)

صفّنا ككلّ الصفوف الأخرى بدأ يستعدّ لعيد الميلاد (نويل/ الكريسماس). حفلة المدرسة يجب أن تُقام يوم ٢٠ ديسمبر (كانون الأوّل)، وهو آخر يوم دراسي قبل العطلة. تمّ تقسيم أعمال تزيين شجرة الميلاد وقاعة الصّفّ على التلاميذ في كنف "روح التعاون الديمقراطية"، مثلما قالت الآنسة مارتال. وقالت إن بعض الأشغال الجماعية تساعد في جعلنا "مواطنين صالحين"، ثمّ سمعنا كلاماً كثيراً عن "التشارك العادل".

تمّ إذنْ تقسيم العمل عن طريق القرعة. حسدتُ كثيراً أولئك الذين اختارتهم القرعة لقَصّ رؤوس سان نيكولاس الورقيّ، ولصقها على زجاج النوافذ، وكنتُ أشدّ غيرة أيضاً من أولئك الذين اختارتهم ليعلّقوا الكرات الملوّنة على شجرة الميلاد.

أمّا أنا، فقد اختارتني القرعة، وباسم التشارك العادل لتلوين جذوع أشجار النخيل في لوحات الهروب إلى مصر(*). أعطوني إذنْ إناء ألوان مائية وفرشاة عريضة كانت الأسوأ على الإطلاق، لا أتذكّر مَن الذي لوّن

*) الهرب إلى مصر: هو حدث هروب الطفل يسوع ومريم العذراء ويوسف النّجّار من بيت لحم إلى مصر حسب رواية الإنجيل، كي لا يلتقوا بهيرودس الملك الذي تخوّف من أن يزاحمه المسيح في الملك - إذ كان من صفات المسيح كونه ملكاً، وهو ما سيتحقّق في المجيء الثاني وفق المعتقدات المسيحية - فأراد قتله عن طريق المجوس، فحينما فشل، قرّر قتل جميع أطفال بيت لحم من دون السَّنَتَيْن، ولكن وحياً قد جاء ليوسف في الحلم يخبره بأن يأخذ الطفل وأمّه إلى مصر، فهربا، وأقاما بها حتّى وفاة هيرودس، قبل أن يعودا إلى الناصرة.

الأوراق حسب القرعة، ولكنني شعرتُ أن قلبي ممتلئ. ربمّا كانت ابنة الكولونيل التي رفضت العمل على أرجل الحمار، لأنها وكما قالت بازدراء "لا تعرف كيف ترسم أرجل الدواب".

عندما كانت تُلوّن وجه "ماري" (السّيّدة العذراء) صاحت فجأة بضجر:

- أوه! اللعنة! لا أستطيع رسم شَفَتَيْها بشكل جيّد!

- هل ترغبين أن أجرّب أنا ذلك؟ قلتُ متطوّعاً.

- أنتَ؟ هل تسمعون ما أسمعه، يا أصدقاء؟ جيف يريد رسم الشفاه.

- لا .. غير معقول، قالوا بصوت واحد ساخرين، فقط نرجو أن لا يتّخذ شكل فمه مثالاً!

من باب الإنصاف، طلبت منّا الآنسة مارتال قبل الحفلة بأسبوع، بأن يكتب كل واحد منّا اسمه على ورقة صغيرة. هذه الأوراق بعد خلطها داخل سلّة، نقترب واحداً بعد آخر، لاختيار ورقة، سيكون مكتوباً عليها اسم الشخص الذي سنمنحه هدية الميلاد – يانصيب الطيبة - هكذا شرحت الآنسة مارتال الأمر، كنّا متأكّدين جميعاً من الحصول على هدية، وإعطاء هدية في المقابل، وبالتالي من المشاركة في "روح عيد الميلاد".

خلال السحب، ارتسم الضيق على وجوه كثير من التلاميذ عند اكتشاف الاسم الذي اختارتْهُ لهم القرعة، فكنّا بين حين وآخر تسمع: "أوه! تباً!" تصاحبها كثير من علامات الاستياء. أشعرتْني تكشيرة ابنة القاضي التي توجّهتْ بها إليّ، أن الورقة التي سحبتها كانت تحمل اسمي.

بالفعل، تلقّيتُ منها مجلّة رسوم متحرّكة بوليسية لـ ديك تريسي، لم

يكن للاحتقار دور في اختيارها هذا، بل لأن الآنسة مارتال فرضت علينا أن لا يتعدّى ثمن الهدية الخمسة عشرة سنتاً، وبالتالي لم يكن ثمّة خيار آخر.

استأذنتْني دقيقة، كي تتحدّث معي، وقالت بتأكيد:

- إنه ما يتماشى تماماً مع الموسم، لأن الجريمة التي اكتشف فاعلها وحلّ خيوطها المحقّق تريسي ارتُكبت يوم عيد الميلاد (نويل).

- هل هذا يعني أنكِ قرأتها قبل أن تقدّميها لي؟ تساءلتُ بخيبة أمل.

- ولكنْ ... نعم، بالطبع، ولمَ لا؟

بالنسبة إليّ، كان يمكن تسميتها أيّ شيء إلاّ حفلة. أكثر ما جعلني حزيناً وذاهلاً هو غياب ويلي الذي كان مريضاً.

أنشدْنا كثيراً من التراتيل، ثمّ جاء وقت توزيع المأكولات، وكان البدء بـ "الجيلي بينز" أو الحلوى على شكل حبّة فاصولياء. أمام صفّ صامت، شرِه، منتبه، كان التلاميذ الذين تكفّلوا بالتوزيع، يقومون بحسابات دقيقة فوق الطاولة، كنّا نراقب حماستهم وجدّيّتهم مقتنعين أنهم يقومون بمهمّة على قَدْر كبير من الأهمّيّة.

الحفلة بأكملها ضاعت بالنسبة إليّ، لمُجرّد غياب ويلي، لم أتوقّف عن النظر إلى مقعده الفارغ، شعرتُ أنني منعزل جدّاً داخل هذا الصّفّ، حيث لا أحد يقيم فيه أيّ اعتبار لوجودي، كما لو كنتُ غائباً أيضاً.

قدمت والدة أحد التلاميذ، إنها السّيّدة "فايرويذر"، ملفوفة بالفرو، وفوق رأسها قبّعة "توربان" على (الموضة)، لقد بذلت، بلا شكّ، وبشكل

تطوعيّ بحت، جهداً كبيراً لجعل حفلتنا أجمل وأكثر إبهاجاً، دخلت متبُوعة بخادمتها التي كانت تحمل بين يَدَيْها علبة ضخمة، في داخلها جبال من كعك "الغريبة" المصنوعة على شكل شجرة الميلاد، وكلها مرشوشة بالسّكّر الملوّن، الأحمر أو الأخضر، ألوان الموسم، كما سقتْنا جميعاً "الصودا بوب"، وهو عصير فواكه غازيّ ملوّن بالأحمر أو الأخضر الفاقع، هذه الصودا كانت من ماركة "أمبريال"، ولقد كان بيت أو عائلة "فايرويذر"، حسب الكلام الذي كان يتفاخر به ابن السّيّدة، "يأخذون ما يشاؤون بسعر الجملة".

عندما هدأت أصوات الأكل قليلاً.

- طلبت منّا الآنسة مارتال أن نقف جميعاً، ونقول بصوت واحد:

- شكراً جزيلاً لكِ، سيّدة "فايرويذر".

بعد ذلك، سألت عمّن بإمكانه أن يتطوّع، ويأخذ حصّة ويلي من كل شيء.

- أنا، آخذها له. صحتُ رافعاً يدي.

- لا، أنا صديقه الحميم. قال رونالد.

بأسف شديد، رأيتُ كيف ضاعت منّي فرصة سانحة لزيارة ويلي، وراقبتُ رونالد "صديقه الحميم" وهو يضع داخل علبة صغيرة حصّة ويلي: قطعَتَيْن من كعكة الغريبة، خضراء وحمراء، ستّ حبّات فاصولياء، ونصف حبّة.

في ذلك اليوم، لم يكن ثمّة ويلي الذي أعتمد عليه، الذي جعلني ولو لوقت قصير مقبولاً بين الآخرين، لم أتوقّف عن تأمّل مكانه الفارغ، مكان "الرجل فوق الجبل".

رغم ذلك، ولأن الإنسان يملّ أحيانا من كونه شرّيراً، أو ربمّا بسبب تأثير ويلي عليهم أو بتأثير من روح يوم الميلاد السائدة يومها - ولو بالطريقة التي تتخيّلها الآنسة مارتال - لم يعاملني التلاميذ بعداء حقيقي. بعضهم ذهب إلى حدّ تبادل بعض الكلمات معي، خصوصاً عند غياب شاهد، حيث بإمكانهم في تلك الحالة خشية المجموعة، بدأتُ إذنْ في التّنفّس، واعتراني شيء من الأمل.

كان ثمّة استثناءات في يوم الاحتفال هذا بالذات، ولد صغير، ولكنْ، ضخم ، قصير وسمين، اختير ليلعب دور الأب "نويل، ارتدى الزّيّ الأحمر، أبيض الحواشي، القبّعة الحمراء بطرفها الأبيض، الحذاء الطويل الأسود. كان صوته الطفوليّ يخلق نوعاً من التباين المضحك، بين شكله وصوته، كلّما خرجت الكلمات عبر قناع الجدّ الطّيّب بلحيته البيضاء. عندما استمرّت هذه الكوميديا لوقت طويل، بدأ التلاميذ في الصياح:

- اخلع قناعكَ! اخلع قناعكَ!

هكذا حتّى امتثل لهم، ما انجرّ عنه عاصفة من الضحك والتصفيق. في ذلك الوقت، كنّا واقفين جميعاً والحفلة تقترب من نهايتها، أنا بجانب النافذة، مرّة ألقي ببصري على مكان ويلي الفارغ، ومرّة ألتفت إلى الخارج عبر النافذة، إلى قِطَع الثلج التي نحتت أشعّة الشمس أخاديد بداخلها كانت أشبه بمستنقعات.

فجأة شعرتُ أني مراقب، مجموعة مكوّنة من أربعة فتيات، تتوشوشنَ، وتتضاحكنَ فيما بينهنّ، ثمّ قمنَ بدفع واحدة منهنّ - بدت عليها علامات الحرج والممانعة - نحوي قائلات:

- لن تتجرّئي.

أخيرا اقتربت منّي، وفجّرت عرضها أمام كامل الصّفّ:

- أنتَ أيضاً، جيف، اخلع قناعكَ!

انتهت الحفلة، وذهبنا جميعاً إلى آخر القاعة لأخذ معاطفنا من الخزانات، هممتُ بفتح الباب الذي أُلصق فوقه رسم يمثّل "بشارة الرعاة"، فتفاجأت بوجود فتاتَيْن في الداخل، إحداهنّ كانت وريثة لأكبر محلّ بسكويت في سومرست. خرجتا دون أدنى حرج، بل على العكس، ارتسمت على وجهَيْهما علامات الفخر والتّحدّي، ولكنني لاحظتُ شيئاً صدمني: على اليد اليمنى لكل فتاة منهما كان هنالك وخزات إبر عميقة، وحولها بعض قطرات دم. انفجر الصّفّ ضاحكاً، ولكنه كان ضحكاً قلقاً. والآنسة مارتال تظاهرت أنها لم ترَ شيئاً.

برؤيتي للفتاتَيْن ولقطرات الدم انقبض قلبي من الهلع، وشعرتني فجأة مثلّجاً بكاملي، فهذه الحادثة رمتْني داخل هاوية عميقة. ربّما كان ذلك طقساً من طقوس الصداقة - قلتُ لنفسي - ، مُجرّد عهد بينهما، ولكنْ، بدا لي أنه لو كانت الحالة هذه كان يجب ربّما أن تكون الوخزات أقلّ عدداً وعمقاً. حدسي الطفولي حدّثني أن الأمر ليس بتلك البساطة. ولكنْ، مهما يكن، لم أرغب البتّة في معرفة شيء عمّا كان يحصل وراء تلك الخزانة.

سحبتُ معطفي، وقبّعتي وقفّازاتي، ثمّ انحنيتُ، لأفتّش بين كل تلك الأحذية البلاستيكية العازلة - التي نلبسها فوق أحذيتنا، لتقينا من المطر

والثلج - ، والتي تنبعث منها رائحة المطّاط والطين والثلج الذائب، عن ذاك الذي يخصّني، ولكنني لم أجده. اضطررتُ أن أنتظر خروج الجميع ولكنْ، بلا جدوى.

- لقد نسيتَهُ في البيت، هذا كل شيء. (كرّرت الآنسة مارتال باستعجال، وهي تمسك المفاتيح بين يَدَيْها).

كنتُ واثقاً أن ذلك لم يكن صحيحاً، لأن أمّي من المستحيل أن تسمح لي بمغادرة البيت دون حذائي العازل.

فوق طبقة سميكة من الثلج حوّلتْها الشمس إلى بركة، مشيتُ عائداً إلى البيت، قَدَمَاي مثلّجتان، حذائي المبلول يحُدِث صريراً مع كل خطوة، وبينما أمشي، كنتُ أحاول استيعاب كل هذه الأشياء، غياب ويلي، المشاركة العادلة، المشاعر الطّيّبة باسم الدِّين التي وعظتْنا بها الآنسة مارتال، حادثة الدم المريبة للفتاتَيْن داخل الخزانة، سرقة حذائي العازل، "قِناعي" ...

من الصعب جداً إيجاد كلمات، أعبّر بها عن حجم ما شعرتُ به من اشمئزاز داهم، بسبب كل تلك الخيبات المتراكمة.

كان كثيرا جدًّاً على يوم واحد استيعاب هذا كله، وعلى الرغم من ذلك وفوق حِملي الثقيل من الأحداث السّيّئة، أُضيف حِمل آخر. فبينما كنتُ أمشي، لمحتُ مجموعة من الصبيان، كانوا عشرة ربمّا، ولا أعرف أيّاً منهم، يُشكّلون دائرة حول ولد آخر أصغر منهم، يقومون بضربه وتخويفه.

- خذْ، أيّها الجبان الصغير! (قال أكبرهم وهو يسدّد له الضربات

بقَدَمه). سيساعدكَ هذا في إنقاذ نفسكَ مستقبلاً.

- بالطبع، نحن نريد التّحدّث إليكَ بغير كُلفة فقط. (أضاف آخر).

ثمّ انفجروا جميعاً ضاحكين.

شعرتُ بالاستفزاز، ولكنني كنتُ أضأل جدًّاً من أن أتدخّل. شعرتُ أن العدوانية ترشح من هؤلاء الصبيان، وأنهم يبحثون عمّنْ يصبّونها فوقه، وأن تدخّلي سيكون أفضل فرصة لهم لتفريغها.

- ولكنْ ماذا فعل؟ (سألتْ).

- عنده فم قذر، ألا يكفي هذا؟

عندئذ اقترب أكبرهم حجماً، وبالتأكيد عمراً أيضاً، وسدّد ضربة قوية بقَدَمه على فخذ الفتى الصغير، سقط الأخير فوق الثلج، وظلّ يعوي لوقت طويل من الألم، ويتلوّى، ويسحب الهواء لاهثاً مثل سمكة على اليابسة، أمّا أنا، فقد غرقتُ في حزني، شاعراً في الوقت نفسه أنني عاجز ومشلول أمام معاناته، وتسمّرتُ في مكاني.

- هل تريد إغلاق فمكَ، أيّها الطفل البكّاء؟

- إنه يُمثّل، هذا بائن جدًّاً.

- هل هو خائف؟!

وغرقوا مجدّداً في الضحك، ولكنهم لم يكونوا مقتنعين تماما أن الفتى الصغير كان يمثّل فعلاً، لأنهم، وبشيء من القلق، توقّفوا عن ضربه.

فجأة استعدت انتباهي عندما لاحظت أن بعض النظرات بدأت تنحرف

نحوي. استأنفت طريقي لأنني لو بقيت هناك ثانية أخرى كان سيجيء دوري بلا شكّ.

مشيتُ متلفّتاً من حين لآخر، كنتُ حزيناً لأن ثمّة شخصاً أنانياً سرق حذائي العازل، ولأن لا مجال لافتراض وجود خطأ أو لخبطة، فأبي ألصق بداخله ملصقاً كبيراً، يحمل اسمي وعنواني.

بعد يومَيْن، جاء أحد التلاميذ تصحبه أمّه على متن سيّارة، وفي يده حذائي، وعندما سألتُهُ لماذا أخذه؟! أجابني بكل بساطة وهدوء:

- وكيف كنتُ سأعود أنا إلى البيت؟ لم يكن عندي واحد ...

لا .. بدون عناء، بدأتُ أتعوّد على انعدام الوعي والإدراك العامّ هذا، عشتُ داخل عزلة، وشعرتُ بفقدان الشَّغَف. ولكنْ، عندي عائلتي دائماً، وأنا سعيد في الأحوال كلها، بفضل هذا الحُبّ الذي أجده في البيت، والذي لا يعوّضه شيء. ثمّ فكّرتُ بالسعادة التي تنتظرني أيضاً خلال العطلة، ذلك لأنني خطّطتُ أن آخذ هدية لويلي.

(٨)

صفُّ بوبي احتفل أيضاً بيوم الميلاد، وقد استمتع بالحفلة جدّاً، لذلك لم يفهم قلّة حماسي، خصوصاً تجاه القصّة المقروءة سلفاً من قِبَل واهبتها التي تحدّثت عنها بدورها بحماسة. احتفظتُ له داخل منديل ورقي، بقطعة من حلويات "الغريبة" وبعض حلوى الفاصولياء المسكّرة، ولكنه كان متخماً بعد العودة من حفلته، إلى حدّ عدم القدرة على ابتلاع أيّ شيء آخر.

غضبت أمّي كثيراً، بسبب سرقة حذائي العازل. وزاد ضيقها عندما سمعتْني أعطس. بالفعل أُصبتُ بنزلة برد، دامت ثلاثة أيّام، وبالتالي لم يتبقّ أمامي سوى يومَيْن لشراء هدايا العيد، حفلة المدرسة انقضت، ولكنْ، ما تزال الحفلة الرسمية. وبالنسبة إليّ، الحفلة الحقيقية الوحيدة.

فور تحسّني، أخذتُ (التِّرام) الذي أحبّه كثيراً، لأن صوته يوقظني كل يوم مع بدء ظهور خيوط الفجر الأولى. ونزلتُ إلى وسط المدينة، لأختار هداياي.

اشتريتُ لبوبي إطاراً مقسّماً إلى مربّعات، كل مربّع كان يحمل عيّنة من أحد المعادن أو من العناصر الكيميائية، ملصق تحتها اسمها بالحروف اللاتينية: كبروم، فيروم ... Cuprum ..ferrum

ومن أجل هدية ويلي، قصدتُ محلاً لبيع الطوابع، حيث كنتُ زبونا

نادراً، ولكنْ، زائراً دائماً، وداخل جناح الطوابع لطالما تمشّيتُ، حلمتُ، وطمعتُ ...

وقّفتُ مفكّراً لوقت طويل أمام باقات مختلطة لطوابع روسيا، وأخرى لأميركا الشمالية. البائع الذي يعرفني جيِّداً ضايقه تردّدي الدائم، ولكنْ، في النهاية استقرّ اختياري على باقة "أوروبا - التشكيلة الكبيرة"، والذي بدا لي رغم كل شيء، أنه يحتوى على العيّنات الأكثر أهمّيّة، اشتريتُهُ لويلي إذنْ.

لأبي ابتعتُ خمسة سجائر من نوع "السيجار" الفاخر، ولأمّي علبة صغيرة من ألوان الباستال الرئيسية

، وفيها ألوان أخرى إضافية كالبرتقالي الذي لم يكن عندها في ذلك الوقت. كنتُ سعيداً بعلب الهدايا التي اشتريتُها إلى الحدّ الذي دفعني أن أصفّر وأغنّي بصوت عال جدّاً داخل ترام الإياب - ورغم أننا كنّا في فترة بعد الظهر- صدحتُ بأُغنيّة: "أوه، يا له من صباح رائع!". لقد أحببتُ أن يعرف كل الركّاب وأن يفهموا إلى أيّ حدّ كنتُ سعيداً.

مررتُ على بيت ويلي، لأعطيه الهدية التي اشتريتُها له، ووجدتُ أنه قد تعافى تقريباً، والدته السّيّدة ألدريدج لم تكفّ عن التّعجّب:

- كم هو لطيف، جيف الصغير! آه، لا يمكنني التصديق، أيّ جيل جميل أنتم!

فتح ويلي علبة الطوابع "أوروبا - التشكيلة الكبيرة"، وبدت عليه علامات السعادة البالغة. إعطاء هدية لويلي غمرني بالفرح، لدرجة أنني بدأتُ أفكّر في هدية ثانية في أقرب وقت ممكن.

- تعال، هذا سيكمل سلسلتي "جورج السادس" (قال ويلي وهو يأخذني إلى غرفته).

كانت غرفته مختلفة جدّاً عن غرفتي، فقد كانت تزيّنها صور أكبر لاعبي البيسبول. على الأرض، كان يوجد مزلاج جليد، كرة قَدَم، كرة سلّة قديمة، ليس فيها هواء، وكثير من الأدوات الرياضية الأخرى، زوج من قفّازات الملاكمة معلّق في زاوية المرآة. قال لي عنها إنها كانت لأخيه، سرير ويلي كان عارياً من أيّ غطاء، كما أن الكومودينة كانت تفتقر إلى زرَّيْن منزوعَيْن.

- الطَّابَع "باغود" الذي أعطيتَني إيّاه ذلك اليوم، تذكره؟ (قلتُ)، ثمّ أكملتُ:

- حسناً، لقد فصلتُهُ عن ذلك الجزء من الظرف الذي كان ملصَقاً به، والآن هو في ألبومي.

- لابد وأن أخي قد رأى أيضاً باغوديّيْن! إنه طيّار مقاتل في بورما ...

- هل ثمّة باغوديون في بورما أيضاً؟

- طبعاً ..

صاحت السّيّدة "ألدريدج" من مكانها في الصالون، حيث ظلّت جالسة ترتق جوربا:

- ولكنْ، يا ويلي، لا تقل هذا، نحن لا نعرف مكان جورج فعلاً. في بورما ربّما أو حتّى في القطب الشمالي، فكّر أننا نجهل ذلك أيضاً!

- في النهاية (استأنف ويلي) هو في مكان ما من الشرق، انظر هذه آخر صورة له قبل أن يذهب. هذا هو المطار، وهذا جناح طائرته.

أمّا السّيّدة "ألدريدج"، فراحت تكرّر بصوت متأثّر:

- لا نعرف حتّى مكانه ...

فجأة أعاد ويلي الصورة إلى مكانها، وأشار لي بحركة سرّيّة أن لا أتكلّم مجدّداً عن أخيه، حتّى لا تشعر أمّه بالحزن، هي أيضاً كانت ترغب في تغيير الموضوع، والتّكلّم عن شيء آخر، فقد قالت من هناك:

- اسمع ويلي، دع جيف يرى طَابَعكَ "الشَّفَّاف" كما تسمّيه.

- آه، نعم. تعجّب ويلي متحمّساً وهو يفتح ألبومه على صفحة الطوابع النمساوية، ثمّ أردف:

- انظر يمكننا حتّى النظر من خلاله. إنه الوحيد في العالم الذي يحمل هذا الامتياز، امتلاكه يحتاج بلا شكّ إلى ثروة، لن تجده حتّى في فهرس الطوابع! حتّى تجّار الطوابع لا يمتلكونه.

بقيتُ أتأمّل طويلاً ذلك الطَّابَع الشَّفَّاف. كان لونه باهتاً مائلاً إلى الصفرة، مرسوم عليه رجل عجوز لحيته طويلة وعلى رأسه تاج لوردات.

أشعل ويلي اللمبة، وطلب منّي أن أقرّبه إلى المصباح، لأرى جيّداً من خلاله، داهمتْني رغبة غريبة في امتلاك هذا الطَّابَع. لم أفكّر مطلقاً في امتلاك طَابَع آخر مماثل له، لأن هذا بالذات ما أريده. طَابَع ويلي المفضّل.

- قل لي.(سألتُ ويلي عندما وقفْنا في الصالون وأنا أغادر)، هل جلب لكَ رونالد حصّتكَ من حلويات الحفلة؟ هل كان هناك قطعتا كعك؟

- لا، كان هنالك قطعة واحدة، لماذا؟

لم أكن غاضباً بالمرّة أن شَرَهَ رونالد سيجعله يخسر مصداقيّته أمام ويلي.

- كيف؟! لقد وضعنا لكَ اثنَتَيْن، رأيتُهما ... ويلي هل تقابل رونالد باستمرار؟ نعم؟ ولكنْ ... هل أنتَ صديقه الحميم، كما يقول؟

- ماذا؟ هل قال هذا؟ إنه يتكلّم كثيراً، إنه يزعجني ...

كلمته الأخيرة أشعرتْني بالطمأنينة، ولكنْ، لثانية فقط، لأنه أردف:

- ... ولكني أحبّه كثيراً، مع ذلك.

- في الصّفّ، ذلك اليوم، هل تذكر؟ لطّخ كل شيء بالحبر، قميصه الأبيض، وحتّى أذنه.

أجاب ويلي ضاحكاً:

- نعم، أعرف، إنه أحمق أحياناً.

- ويلي(خاطبته أمّه بغضب، التي بعد عطلة الميلاد كان يجب أن تستأنف عملها كمعينة منزلية أنيقة)، رونالد ينحدر من عائلة كبيرة جدّاً، وأنا أمنعكَ من التّحدّث عنه هكذا، أتمنّى عندما تقابله أن تكون لطيفاً معه.

من خلال الباب الموارب، كنتُ ما أزال ألمح مزلاجَي الجليد في غرفة ويلي:

- تمارس رياضة التّزلّج كما أرى، عندي صديق يفعل ذلك أيضاً، السّيّد ساندت، عمره ٧٤ عاماً.

- تتّخذ عجوزاً كصديق؟ (سأل ويلي مندهشاً).

- نعم، لديه مجموعة رائعة من الطوابع ومن القِطَع النقدية.

- هل أستطيع الذهاب معكَ لزيارته في أحد الأيّام؟

- طبعاً! (قلتُ سعيداً بهذه الفرصة).

- هل بإمكاننا اصطحاب رونالد معنا؟ أظنّ أنه سيهتمّ بذلك كثيراً.

تردّدتُ، فقد رغبتُ أن آخذ ويلي وحده، ولكنني كنتُ مجبراً على الموافقة:

- نعم، لو تريد، لديه ساعات عتيقة ساحرة الجمال كلها، ولديه أشياء من الأنتيكا كثيرة جدّاً، إنه ساعاتي قديم جدّاً، ووحيد.

في هذه اللحظة، رفعت السّيّدة "ألدريدج" عينَيْها عن الجورب، وسألتْني عمّا يعملُ أبي.

- موظّف بمركز الأرصاد. أجبتُ، ثمّ توجّهتُ لويلي:

- وأبوكَ ويلي؟ أنا لم أره بعد، ماذا يعمل؟

تضايقتُ كثيراً عندما شرح لي ويلي أن والده ميّت منذ سنوات طويلة، وبعد صمت ثقيل، أكمل:

- قل لي، يا جيف، ماذا تنادي أباكَ؟ "بابا" طبعاً، أليس كذلك؟ أنا أيضاً كنتُ أنادي أبي هكذا، إنها أفضل من كلمة "والدي"، ألا تجد هذا صحيحاً؟ و.. هل هو أصلع بعض الشيء؟ نعم؟ حسناً، أبي أيضاً كان أصلع حسب صوره التي أعطتْها لي أمّي!

بدا لي ويلي في غاية السعادة، بسبب هذا التشابه الغريب بين والدي ووالده، خمّنتُ أن لويلي أيضاً "نَدبَته"، غير أن الفرق بين نَدبَته ونَدبَتي أن نَدبَته لا تُرَى.

بعودتي إلى البيت، وجدتُ بوبي في الحديقة، بصدد وضع الحجر الأوّل لقلعة الثلج، انخرطتُ فوراً في المشروع. ومعاً بنيْنا هذه القلعة في زاوية من البيت الذي كان يحمينا من جهَتَيْن، في منتصف الجدار، تركنا فتحة للرَّمي عند القتال. وعندما أكملْنا القلعة، بدأنا في صنع عدد كبير من القذائف.

- أكبر، يجب أن تكون أكبر من هذا. (قلتُ له)، وأضفتُ:

- ألا تتذكّر تلك القذائف الضخمة التي رأيناها في مُتحف "راش" ؟حسناً هكذا يجب صُنعها.

لونُ الغروب منح جدران الثلج مسحة من الزرقة، الدخول في القلعة كان شيئاً ممتعاً، ارتعشنا، ولكنْ، ليس من البرد، بل من السعادة.

انتهى عملنا، التفت لي بوبي، ضحك، وقال:

- أنتَ أخي.

أعداني ضحكه، فضحكتُ أنا بدوري، ثمّ أرسلتُ له ضحكته من جديد، فعاد إلى الضحك، وهكذا ... استمرّت الحال بيننا بهذا الشكل لعدّة دقائق، نتقاذف تلك الضحكة، كأنها كرة.

- أنا لستُ مغفّلة، أعرف أنكم في الداخل!

كان هذا صوت الجارة الصغيرة التي كانت مارّة.

- هيّا، اذهبي من هنا، وإلا أطلقنا عليكِ النار. (صحتُ أنا ممازحاً).

ولكنها غضبت، وضربت القلعة ضربة قوية بقَدَمها، كان يمكن أن تؤذيها.

- لن تذهبوا أبدا إلى الجنّة. (رمت بكلماتها هذه، وهي تتّجه نحو بيتها)، وأكملت:

- إذا كان دخولكم الجحيم لا يهمّكم، فأنتم أحرار.

ثمّ سمعنا جلبة تشبه طلقة بندقية: لقد كان بابها وهو يُصفَق.

في البيت، تمّ تعييني كمدير مسؤول عن الديكور، وأنا اخترتُ بوبي ليكون مساعدي، ثمّ شرعنا في العمل معاً.

على ورق أخضر، رسمنا تيجان عيد الميلاد، ثمّ قصصناها بدقّة متناهية، دون نسيان حوافّها المدبّبة، ولا ثمارها الحمراء الصغيرة، بهذا الشكل. أصبحت نوافذنا مغطّاة بعض الشيء رغم أنها كانت تفتقر لتيجان

شجرة الإليكس الحقيقية، والتي كانت تغطّي نوافذ بيوت "الجهة الراقية" من فران ستريت.

لم تكن إمكانيات والدي المادّيّة تسمح له بشراء شجرة كبيرة كالتي تفاخر بها طيلة أسبوع أغلب زملائي في الصّفّ وهم يسخرون من بعضهم البعض:

- شجرتي أكبر من شجرتكَ، طولها ستّة أقدام وثلاث بوصات.

- ليس صحيحاً، إنها لا تصل حتّى لخمسة أقدام، لقد رأيتُها من نافذة بيتكم.

- على أيّة حال، شجرتي هي الأكبر على الإطلاق: ثمانية أقدام وبوصتان ونصف البوصة. (قال رونالد).

بالنسبة إلى بوبي وإليّ، وبسبب صغر حجمَيْنا، بدت لنا شجرتنا كبيرة وجميلة، جيّدة ونقية.

علّقْنا عليها الأضواء، والزينة، والكرات البَلُّورِيّة الملوّنة، أصعب لحظة كانت وضع النجمة ذات الثمانية حوافّ على قمّة الشجرة، كان بوبي يتابعني، وأنا أفعل ذلك آسفاً أنه لا يستطيع مشاركتي، ساخراً منّي، من وقت لآخر، إلى أن نجحت أخيراً في تثبيتها.

وضعنا الشجرة بجانب النافذة، حتّى تصل هذه الأضواء إلى العابرين، وتضيء قلوبهم. في تلك الليالي وبعد العشاء، كنتُ أحرص أنا وبوبي على إطفاء أضواء البيت كلها إلا تلك التي على الشجرة، لأننا كنّا نحبّ

رؤيتها وهي تضيء وسط الظلام، تصبغ الزينة، وتنعكس على كرات البَلُّور الملوّنة.

ليلة الحفلة وبعد العشاء، إذ طبخت أمّي الدجاج بطريقة استثنائية، أشعل أبي مدفأة الحطب، وأطفأ مصابيح البيت، ثمّ أضاء الشجرة. جلسنا هناك قريباً من النار، سعداء، وسط صمت كثيف، لا يقطعه سوى فرقعة الخشب وتطاير الشرارات.

جلسنا حول النار، في جوّ كان خليطاً من الدفء والضوء والحُبّ، لم يخطر ببالي قطّ أن أفسّر سعادتي، فقد بدت لي دائمة وأبدية.

في ليالي الحفلات هذه تعوّدنا على فَتْح هدايانا، سحبنا العلب المخبّأة تحت الشجرة، وشرعنا في فَتْحها بالدور، كل واحد منّا يفتح هديته، ثمّ يأتي دور الآخر، ثمّ الذي بعده وهكذا حتّى يعود الدور إلى الأوّل. عندما يبدأ أحدنا في فَتْح هديته وسط نفاد الصبر الجماعي - شرائط من المستحيل فكّها، الغلاف الملفوف بداخله الهدية ممزّق، بسبب العجلة، التّعجّب من المفاجأة - ، آنذاك يكون الثلاثة الآخرون في حالة انتظار بلا حركة واحدة، مبتسمين، ومتحمّسين لمشاركة صاحب الهدية فرحته.

عندما فتحنا الهدايا كلها، قام بوبي بتفحّص أسفل الشجرة من جديد، ليتأكّد أننا لم ننسَ أيّ علبة، وبالطبع لم يجد شيئاً. مرّات كثيرة، ولوقت طويل، قمنا بفصل الهدايا بعضها عن بعض، وإعادة عرضها على بعضنا. بدأ أبي بتدخين واحد من سجائره الجديدة، بوبي يقلّب بطاقة المعادن، أمّا أمّي، فقدمت لنا إنجازها المسائي، وكان كعكة الفواكه الذائبة التي احتفظت بحرارتها.

- التاسعة ونصف! بوبي، هيّا إلى السرير! (قالت أمّي بنبرة صارمة ممازحة).

تظاهر بوبي أنه لم يسمع شيئاً، تأمّل صحنه الفارغ، ثمّ التقط بعض الفتات الصغير المتبقّي، علقت عيناه بالشجرة، ومن ثمّ، انتقلت إلى المدفأة، وبينما كانت توشك أمّي على قطع الصمت، وإعادة أمرها، نظر بوبي إلينا جميعاً، وقال:

- هذا كل شيء؟...

بعد وقت صرخ من سريره:

- عندما أصبح كبيراً (كان يقول دائماً "عندما أصبح كبيراً...")، سأصبح غنياً جدًّاً، وسأشتري لنا مئة وثلاث عشرة شجرة، ومئة وثلاثة عشر قالب "كاتو"!...

ضحك أبي. ثمّ التفت إلى أمّي، وبعَيْنَيْن تلمعان من الفرحة، وقال مرّة أخرى:

- بإمكاننا فعلاً أن نكون فخورين بوَلَدَيْنا الاثنَيْن.

- نعم فعلاً (أكملت أمّي) عندما أفكّر أن جيف اشترى هدية لصديقه ويلي المريض، وذهب إلى بيته ليُعطيها له، أجد أن هذا لا يعني شيئاً سوى أنه طيّب.

في تلك اللحظة، أحسستُ بالفخر، بفخر كبير، أحسستُ كما لو أنني غُسِلْتُ حتّى عدتُ نظيفاً جدًّاً. عندما كانوا ينادونني "الشَّفَة الكبيرة" في

المدرسة، كنتُ مستعدّاً لارتكاب أيّ فعل شرّير. ولكنْ، في البيت، إذا قيل لي إني فعلتُ شيئاً جيِّداً، إنهم يفخرون بي، تعتريني رغبة جامحة في تقديم هدية، هدية لأيّ كان!

بعد دخولي إلى السرير بربع ساعة بالكاد، تملّكتْني فجأة رغبة للعودة لرؤية الشجرة، لجعل ليلة الميلاد الرائعة هذه أطول بأيّ طريقة، نزلتُ الدرج على أطراف أصابعي، ثمّ وقفتُ في الصالون وسط العتمة، ظلال الأغصان مستلقية على النافذة المضاءة بمصابيح الشارع، أعدتُ إشعال الشموع، ولكنني حرصتُ قبل ذلك على إغلاق باب الغرفة بلطف حتّى لا أُوقِظَ باقي أفراد العائلة.

مصابيح خضراء وصفراء وزرقاء تُلقي بألوانها على أشعار "عيد الميلاد" المفضّلة لدى أمّي، والتي تحرص كل عام أن تُعلّقها على الشجرة. لطالما أحبّتِ القراءة.

عندما كانت فتاة صغيرة التهمت تقريباً كُتُب المكتبة العامّة كلها في قريتها الأمّ، والتي تقع في الولاية المجاورة لولاية "إيوا"، لم يعد لديها كثير من الوقت لممارسة هوايتها، ولكنها بقيت محافظة على ذائقتها الأدبية. بعض هذه الأشعار المتعلّقة بشجرة الميلاد حفرت عميقاً في روحي وذاكرتي، وكنتُ أسعد بإعادة رؤيتها كل عام في حفلة عيد الميلاد، وذلك طيلة صغري.

مفردات الشِّعْر الإنجليزية كانت صعبة في بعض الأحيان، وكنتُ أجدني مضطرّاً أن أطلب من والدتي أن تشرح لنا بعض المعاني. كانت تفعل ذلك بكل حساسيّتها المفرطة تجاه الأشياء، ومن قصيدة مختزلة، كان باستطاعتها خلق قصّة بأكملها.

بأسف، أطفأتُ مصابيح الشجرة، وتوجّهتُ إلى سريري، وبينما كنتُ مارّا من أمام غرفة بوبي، لمحتُ خيطاً من الضوء تحت بابها، فتحتُ الباب بلطف مستغرباً، ووجدتُ أن المصباح الصغير بجانب سريره ما يزال مُضاء بينما هو، وبعد هذا اليوم الطويل المليء بالإثارة، ينام نوماً عميقاً.

استمعتُ لصوت أنفاسه، وتأمّلتُ عينَيْه المغمضَتَيْن. بالقرب من سريره، كان يضع كرسيَّيْن متجاورَيْن، ليُصفِّف فوقهما هداياه. لقد قام حتّى بجلب حجر الكوارتز الذي كان أسفل الدرج إلى غرفته رغم تحذيرات أمّي، هممتُ بإطفاء المصباح، ولكنني لمحتُ بجانب الكوارتز جزءاً من ورقة، مكتوب عليها شيء ما، اقتربتُ، وقرأتُ اسمي، مكرَّراً عدّة مرّات بشكل عشوائي: "جيف، جيف، جيف"، ومرّة "جاف" بالخطأ.

(٩)

جاء العام الجديد ١٩٤٥، ورجعنا إلى المدرسة يوم الأربعاء التالي. ومثلما وعدتُهُ، أخذت ويلي ورونالد لرؤية السّيّد "ساندت" الذي استقبلنا بلطف، وحكى لنا قصصاً عن طوابعه وميداليّاته القديمة، ثمّ رجاني أن نأتي لزيارته دائماً.

في المدرسة، كانت صداقتي مع ويلي رائعة، وفعلاً، في هذه المرّة، بدأ الزملاء في تقبّلي، وما عادوا يعترضون، إذا ما دعاني ويلي إلى اللعب معهم.

أمّا أنا، فقد أصلحتُ قليلاً من أدائي الضعيف في اللعب، حتّى إنني في مرّات كثيرة، أجدتُ اللعب بالفعل، ومنحتُ لفريقي أهدافاً، وقد بدأتُ أتوقّع بين يوم وآخر اللحظة التي أعود محبوباً فيها كما في مدرستي السابقة، وأن تترك "الشَّفَة الكبيرة" رويداً مكانها "لجيف"، كنتُ أعرف أن هذا كله كان فقط بسبب أن ويلي كان ينادي لأكون عنصراً ضمن الفريق، وأنهم أصبحوا يروننا دائماً نتكلّم، أو نتمشّى معاً.

في هذه الفترة الزمنية، سوف يجدّ حدث سيُغيّر كل شيء. رغم أنه يوم بدأ ككلّ الأيّام الأخرى. أفقتُ على صوت التِّرام الأوّل، وقفتُ لوقت طويل وراء النافذة، ملتحفاً بغطائي، مأخوذاً بهذا الوعد الرائع لصباح من

صباحات شهر جانفي (كانون الثّاني). ولكنني بعد ذلك، لن أعيش مرّة ثانية حالة السعادة هذه.

تناولتُ فطور الصباح مع أمّي وبوبي، لأن أبي غادر باكراً إلى المرصد، مازلتُ أتذكّر بقوّة كل تفاصيل ذلك اليوم التي بقيت عالقة بوضوح في ذاكرتي. عصيدة قشور الشوفان الساخنة جدّاً الممزوجة بالعنب المجفّف، والمزيّنة بالحليب والسّكّر، والتي كانت بمثابة الحصن لي ولبوبي أمام الصباحات شديدة البرودة.

بعد الظهر، وعندما انتهت الدروس، تعمّدتُ التواجد في طريق ويلي إلى البيت، لم يكن يرتدي قبّعة قطّ، لذلك عرفتُهُ من بعيد جدّاً، من خلال شَعْره الأشقر الكثيف. تأسّفتُ لرؤية رونالد معه، ولكنهما كانا معاً دائماً!

- هل نذهب إلى بيتي لرؤية الطوابع؟ (اقترح ويلي).

ذهبتُ بصحبتهما، كنتُ أكدُّ لأمشي فوق طبقة ثلج سميكة، والتي في تلك الأيّام كانت تجعل من المستحيل أن نستعمل درّاجاتنا الهوائية، وفي أثناء سَيْرنا، سمعتُ خشخشة ورقة داخل جيبي. كانت نصف لوح الشوكولا الذي خبّأتُهُ للفطور. سحبتُهُ، واقتسمتُهُ معهما. إثر ذلك، وليغسل يَدَيْه، انحنى رونالد، وغرس يَدَيْه في الثلج.

في تلك اللحظة نفسها، لم يستطع مقاومة رغبته في ضربنا بكرة ثلج، هكذا أعلنت معركة عن بدئها، لم يكن يقطعها سوى ضحكاتنا، لم تكن أكثر من لعبة.صحيح أن كرات الثلج كانت قاسية نوعاً ما، ولكن الألم الذي كانت تتركه كان ألماً ممتعاً، مختلفاً جدّاً عن ذاك الألم الذي كان يغمرني بالتّفرّج على هذه المعارك، أتفرّج فقط، عندما كنتُ مَقصِياً. بعض الكدمات تؤذينا أقلّ بكثير ممّا تفعله اللامبالاة!

اعترضتنا السّيّدة "ألدريدج" عند الباب، كانت عائدة توّاً من عملها، عندما رأت رونالد، ابن الطبيب، تطوّعت بابتسامة أنيقة أن تأخذ عنه معطفه، ثمّ أخذت معطفي، وأخيراً معطف ابنها بحركات، فضحت ندمها على المبادرة. وبينما كان يبدو ظاهرياً أنها تُكلّم ثلاثتنا إلا أنها كانت في واقع الحال متوجّهة بالحديث إلى رونالد:

- ما أجملكم وأنتم مغطّون بالثلج هكذا! كما لو أنكم دمى ثلج لطيفة!

بقينا نتفرّج على الطوابع لوقت طويل داخل غرفة ويلي الذي حرص أن يريني كيف رتّب داخل ألبومه عيّنات "أوروبا - التشكيلة الكبيرة" التي أهديتُها له، وبين الصفحات اكتشف ويلي كثيراً من الطوابع التي لم يُخلّصها بعد من الظروف الملصقة فوقها، ذهبنا لنفصلها في الحمّام، ونقعناها في ماء المغسلة.

ترك ويلي الطوابع لتنشف فوق اللوحة الخزفية، وبعودتنا إلى الغرفة، وجدنا أن رونالد قد أشعل مصباح الغرفة، لأن الظلام بدأ ينزل، سألتُ عن الوقت:

- الخامسة والنصف! يجب أن أعود إلى البيت بسرعة، لأن والدَيّ سيقلقان.

- أنصحك بالانتظار قليلاً حتّى تهدأ العاصفة (قالت لي السّيّدة "ألدريدج")، ألا ترى قوّةَ تساقُطِ الثلج؟

اندفعنا جميعاً نحو النافذة، خارجاً وسط العتمة، كانت رقائق الثلج تمتصّ ضوء الغرفة، ضخمة، حادّة، تتقاذفها الرياح، تتراكض في الظلام

في خطٍّ أفقيّ تقريباً. كنتُ أشاهدها في صمت، واقفاً بين ويلي ورونالد، تتملّكني رجفة السعادة التي تعتري الناس عادة وهم في مأمن عند الطقس السَّيِّئ.

دقّ الجرس، وكان ساعي البريد حاملاً طرداً بريدياً مضمون الوصول، كان صوت السّيّدة "ألدريدج" مسموعاً:

- لمَ هذا التأخير كله! هذه العلب والهدايا أربكت مكاتبكم وزبائنكم قطعاً. آه، إنها من جورج، ومُرسَلة لويلي. ويلي، تعال، أخوك الكبير أرسل لنا شيئاً، تعال. أترى؟ كان معي حقّ، الطرد تأخّر فقط، ولكن جورج لم ينسَنا، لكنه مثل العادة لا يكتب عنوانه!

غادر ويلي الغرفة، رونالد ألقى عليّ نظرة فارغة. انحنى قليلاً، يقلّب مزلاجَي الجليد، ثمّ أوتوماتيكياً لحق بصديقه. وجدتُ نفسي وحيداً داخل الغرفة، لم أكن أفكّر بشيء، وبالكاد أهتمّ بالتعليقات والكلام الذي كان يصلني من الصالون.

ألبوم ويلي ظلّ مفتوحاً فوق السرير. هكذا بدأ كل شيء. نظرتُ إليه مفتوناً، أوّل طَابَع تحت العنوان "النمسا"، هو الطَّابَع الشَّفَّاف.

ثانية واحدة كانت كافية لاقتلاعه من الألبوم، وحشره في جيب القميص، بحركة واحدة، امتلكتُ شيئاً، لمسته أصابع "الرجل فوق الجبل". لقد أصبحتُ صاحبه. سَرَتْ في داخلي رعشة عجيبة.

رأيتُ واحداً آخر، مُؤطَّراً باللون الأسود، أخذتُهُ أيضاً. ثمّ جاء دور طَابَع آخر، لونه أخضر باهت، ذهبوا جميعاً إلى قاع جيبي، ليلحقوا بالطَّابَع الشَّفَّاف.

بدأ جسمي يرتعش، وتعرّقت يداي، مسحتُهُما مرّات كثيرة في بنطالي. سمعتُ صوت أقدام تقترب، زاد ارتعاشي، ثمّ غيّرتِ الأقدامُ وجهتها، وذهبت نحو المطبخ، فُتِحَت خزانة، وصاحبها ضجيج سكاكين وشُوَك.

- ولكنْ، أيّ مقصّ؟ (تناهى إليّ صوت ويلي متسائلاً).

- لا تجده؟ (قالت السّيّدة "ألدريدج" بإصرار)، وأضافت: موضوع دائماً على اليمين.

- لا (أجاب ويلي)، ألا نستطيع فعل ذلك بالسّكّين الكبيرة؟

- حسناً، حسناً ...

أُغلِقَت الخزانة، بنفس الضجيج الأوّل، الأقدام ذهبت إلى الصالون، وأنا في أثناء ذلك، عدتُ إلى تقليب صفحات الألبوم، ومن كل صفحة، أقتلع بعض الطوابع، بحرص أن لا تكون الفراغات مكشوفة:

- هكذا، لن يفطن لعدم وجود هذه الطوابع ...

سمعتُ صرخات الفرحة تأتي من الصالون، وكنتُ أنتظر بين لحظة وأخرى أن ينادوا عليّ، ولكنْ، لا، لقد نسوني تماماً.

أخيرا فُتح الطرد:

- حرير أزرق! أستطيع أن أحيكَ بلوزة منه! ليس من السهل أبداً الحصول على ترخيص لإرسال أيّ شيء من هناك. آه، انظر، هنالك صور ... (قالت الأمّ).

- ها هو، هذا جورج (استأنف صوت ويلي)، ومَنْ هذان الاثنان، صديقاه؟

- ولكنْ، أين هو جورج في هذه الصورة؟ هل تراه أنتَ؟ (قالت السّيّدة "ألدريدج").

- طبعاً، هنا، هنا، لا! نعم، إنه هو!

- دعني أرَ. (طلب رونالد).

- أوه، ما أروعَ هذا، انظروا لهذه.(قال ويلي) يبدون كالحمقى، وهم يسبحون معاً في الوادي الصغير، انظروا.

- صغيري جورج (راحت تكرّر السّيّدة "ألدريدج") كم هو لطيف!

أمّا أنا في الجانب الآخر، داخل غرفة ويلي، كنتُ أقتلع بعصبية الطوابع. كلّما تلامست أصابعي المتشنّجة، كانت الصفحات تهتزّ وتبرق. راودتْني سعادة غريبة. السرقة! غيّرتُ رأيي في وضع الطوابع داخل جيبي، فتحتُ زرّاً من قميصي، ووضعتُها بالداخل بين صدري والقميص، وصل عددهم إلى الثلاثين، ولم أستطع التّوقّف.

- ثمّة فراغات كثيرة في هذه الصفحة (قلتُ لنفسي) لو نقص واحد أو اثنان، لن يلاحظ ويلي ذلك.

- ".... وعندي صور أخرى لي أجمل من هذه (كانت تقرأ السّيّدة "ألدريدج" بصوت عال)، ولكن الرقابة لا تسمح بإرسالها...".

فجأة تنبّهتُ لفداحة ما فعلتُهُ، هل أُعيد الطوابع إلى أماكنها؟ فات

الأوان جدّاً للقيام بذلك، من المستحيل إيجاد وقت كاف لإلصاقها مجدّداً. تأخّرتُ جدّاً. إذنْ، فلأُكمل.

واحد آخر.

- اسمع ويلي، إنه يتحدّث عنكَ: "صغيري المسكين ويلي، ليس عندي شيء أرسله لكَ، ولكنْ، ثقْ بأنني أفكّر فيكَ ...".

طَابَع آخر .. وآخر أيضاً ...

متعة السرقة كانت متوهّجة إلى الحدّ الذي جعل كل المخاطر بلا قيمة، وجعلها أقوى من معرفتي بإمكانية كشفي الواردة. المواصلة كانت تحدّياً، تحدّياً سخيفاً، وبالرغم من ذلك، لم أتوقّف لوقت طويل. دوخة خفيفة جعلت عينَيّ يغشاهما الضباب.

ثمّ طَابَع آخر ...

عندما عاد ويلي ورونالد، كنتُ جالساً على طرف السرير، تظاهرتُ بتقليب صفحات الألبوم بهدوء تامّ، مُعجَبَاً بالمجموعة.

- لماذا لم تأتِ؟

- لم يُنادِ أحد عليّ.

- نعم، ولكنْ، في النهاية ... آمل أنكَ لم تشعر بالضجر على الأقلّ، لا؟

- لا، كنتُ أتفرّج على الطوابع.

كانت قد التصقت بصدري، حوافّها المسنّنة تُدغدغني، وخشخشتها

تخترق أذنيّ. تمنّيتُ لو أستطيع المغادرة، ولكنني لم أجرؤ خشية أن أُثير الشكوك.

أخيراً اعتذرتُ، متعلّلاً بتأخّر الوقت، وبأن أمّي سوف تقلق كثيراً عليّ، لأنني لم أخبرها، وقد كان هذا صحيحاً على الأقلّ.

كنتُ على عتبة الباب عندما لحق بي ويلي:

- اسمع هل تتذكّر طَابَع "باغود" الذي أعطيتُهُ لكَ؟ كان أزرق غامق، عندي واحد آخر، أحمر بعشرة سنون، تعال، سأعطيه لكَ ...

- لا، لا، شكراً، (غمغمتُ)، اتركْهُ لنفسكَ، أنا لا أحتاجه.

- ولكنْ، على العكس، إذا ما وضعتُهُ بجانب الآخر، تعال. (أصرّ ويلي واضعاً يده المُحِبَّة على كتفي).

كان يجب أن أعود إلى غرفته، لم أكن أرغب بذلك بأيّ ثمن، ولكنني كنتُ مُجبَراً على الرضوخ.

- انتظر، سأعطيكَ ظرفاً صغيراً، تضعه فيه حتّى لا يفسد. لوهلة كرهتُ كل تلك الطوابع الملتصقة بصدري. كيف لم يتفطّن ويلي لغياب طَابَعه الشَّفَّاف المفضّل لديه، والذي لطالما أحبّه.

بدأت الآلة تعمل.

دقيقة - لا تنتهي. الأخيرة.

- ولكنْ... أين هو؟ (صرخ ويلي).

- طَابَعي الشَّفَّاف! كنّا نراه هنا منذ أقلّ من نصف ساعة.

- سقط ربمّا؟ ... (قال رونالد).

أكملتُ أنا:

- نعم، دعونا نبحث على الأرض.

وقرفصتُ على أربعة، ألقيتُ نظرة إلى تحت السرير، لم يتبقّ بداخلي أيّ شيء حيال شعوري بفغل السرقة، عدا القرف من نفسي.

- ربمّا انزلق بين الصفحات ... (قال ويلي) وهو يبحث في الصفحة المجاورة لتلك التي تخصّ طوابع النمسا.

تصاعدت دهشته:

- ولكن! لقد اختفت طوابع أخرى! طَابَع أذرابيدجان الأصفر المربّع ... وطَابَع "باد"، كانوا هنا، (تساءل متعجّباً).

- وهنا أيضاً! (أضاف وهو يكتشف فراغاً آخر).

- كنتُ أودّ البقاء لمساعدتكَ في إيجادها.(قلتُ على نحو أخرق)، ولكنْ، تعرف، ستقلق أمّي، أنا لم أقلْ لها إني سآتي لزيارتكَ الليلة ...

كان رونالد يعبث بالزغب الأسود المحيط بخَدَّيْه، صامتاً ومنتبهاً، كالمتفرّج الآمن الذي يشعر ببشاعة ما يرى، ولكنْ، بمتعة أيضاً.

أمّا ويلي الذي كان مذهولاً، فقد ركّز نظره طويلاً عليّ، ثمّ على رونالد، ثمّ من جديد عليّ.

- هل يزعجكما أن أقوم بتفتيشكما؟

- لا أبداً! (قال رونالد)، ثمّ بسعادة غامرة، أضاف "هيّا". ورفع يَدَيْه في الهواء مثلما كان يُشاهَد دائماً في أفلام العصابات.

بدأتُ أتنفّس بصعوبة، وكنتُ على حافّة الاعتراف:

- يجب أن أقول لكَ، ويلي ...

- نعم؟ ماذا؟ (تساءل وهو يفتّش رونالد).

لم أجاوب، إذ لم أكن أرى في تلك اللحظة وبوضوح سوى نتائج هذا الاعتراف، ماذا لو عرفت كل المدرسة بالأمر، كيف سيمكنني أن أعيش بعد ذلك؟ لو أبواي، أخي الصغير، عرفوا، ما الذي سيحدث لمشاعرهم نحوي، ولاحترامهم لي؟

وصداقة ويلي - النادرة جدّاً وغير المتوقّعة أبداً - هل عليّ أن أخسرها؟ أليس هنالك ولو أمل ضئيل لإنقاذ أيّ شيء؟ عليّ أن أخرج من هنا قبل أن يُفتّشني أحد.

- ماذا؟ (كرّر ويلي الذي لم يجد شيئاً عند رونالد).

مازلتُ صامتاً، وشعرت أن الدموع تراودني، "هيّا، قلتُ لنفسي، سأقول إنها لم تكن سوى مزحة، ثمّ أفتح قميصي، وأُفرغهم فوق السرير ضاحكاً. ولكنهما ليسا ساذجَيْن لهذا الحدّ، ليُصدّقا، وسيصبح الأمر أسوأ"، شعرتُ بشَفَتَيّ ترتعشان.

اقترب منّي ويلي، ليفتّشني، يجب أن أختلق حيلة بسرعة، عليّ اختراع تمثيلية.

- لو كنتَ تعدّني صديقاً بالفعل، يا ويلي، لم تكن لتطلب منّي شيئاً كهذا! تفتّش أصدقاءكَ؟ ألا تخجل؟! إذا فعلتَ معي هذا، لا تعد للتكلّم معي طيلة حياتكَ! لا تحاول رؤيتي للأبد! إذا كنتَ تشكّ بي كأيّ عدوّ، إذنْ، فلنصبح أعداء، وهذا كل شيء.

وقف ويلي مصعوقاً، ورونالد أكثر تركيزاً ممّا يكون عليه وهو يلعب البيسبول، يحملق فينا بصمت، ساخراً من الموقف، لكنْ، بصورة تدريجية.

تردّد ويلي لبضع ثوان، ليضبط مشاعره، وربّما ليفكّر، ثمّ بخطوة هادئة وبطيئة، تراجع إلى الخلف، أنزل يَدَيْه، وبنُبل شديد، كان يضاعف خجلي من نفسي، قال:

- حسناً ... حسناً، كما تريد، جيف.

شعرتُ أنني في موضع قوّة، جازفتُ، وقلتُ:

- هيّا، لو أردتَ، انظرْ، إنني لا أمنعكَ، هيّا، فتّشني.

تكلّمتُ مضيفاً للجُمل مسحة من الشراسة، وأكملتُ:

- نعم، نعم، فتّشني!

بدون أن ينطق، حرّك رأسه بإشارة الرفض، أكملتُ إذنْ:

- لا؟ حسناً، ولكنْ، لا تقل بعد ذلك إنني لم أمنحكَ الفرصة لتفتيشي، لا؟ حسناً، جيّد ...

بعد لحظات من الصمت، غمغمتُ دون المقدرة على ضبط نبرتي رغم أنني كنتُ أقول الحقيقة هذه المرّة:

- والداي سيقلقان عليّ، عليّ فعلاً أن أذهب بسرعة.

ولمّا أضفتُ رغماً عنّي "إلى اللقاء غداً، ويلي"، تساقطت دموعي.

ألقيتُ نظرة أخيرة على الغرفة، متوقّعاً بقوّة أنه لن تسنح لي أيّ فرصة لرؤيتها ثانية: السرير المغطّى بلحاف صوفي، اللمبة العارية قوية الضوء. فوق الكومودينة، وفي المكان نفسه، حيث تركه لي ويلي، أخ طَابَعي "الباغود"، الأحمر ذي العشرة سنون، منتظراً.

تظاهرتُ أني نسيتُهُ، لم أجرؤ على أخذه، فقد انقضت نوبة شجاعتي تلك.

بينما كنتُ ألبس معطفي، تهيّأ لي أنه يمكن بأدنى حركة يأتيها جسمي أن يُسمَع صوت الطوابع التي بداخل قميصي، رونالد سيغادر معي، لم أكن أمتلك سوى الصمت في طريقي إلى الباب.

وبما أن رونالد قد رافقني في لحظة خروجي، فقد ظهرت السّيّدة "ألدريدج" من القبو، مبتسمة، وهدية ابنها جورج - الحرير الأزرق - ما تزال بين يَدَيْها.

- مع السلامة، رونالد، ويلي ألن ترافق صديقَيْك إلى الباب؟ مع السلامة، جيف، ويلي يشكركَ مرّة أخرى على الطوابع، إلى اللقاء.

كرهتُ نفسي أكثر عندما بادلتُها ابتسامتها، وأنا أجاوبها:

- مع السلامة سيّدة "ألدريدج".

ما الذي منعني من أن أضيف عندئذ "إلى اللقاء"؟

(١٠)

هبط الظلام، مصابيح الشارع أُضيئت دفعة واحدة، نُدَفُ الثلج المتساقطة تدور حولها مثل فراشات سِحْرِيّة، تذوب فوق أنفي، وداخل عينَيّ، فتختلط بالدموع التي كنتُ أحاول كبحها حتّى لا يراها رونالد. كانت أقدامنا تغرق في الثلج مع كل خطوة، أحببتُ أن أسمعه يقول شيئاً، أيّ شيء، ولكنه تركني أرزح تحت وطأة الصمت الثقيلة. كنتُ متوقّعاً ما سيأتي، كل ما سينجرّ منذ الآن عن حادثة السرقة، قلقاً رحتُ أبحث عن طريقة، أسيطر فيها على الوضع، بدأتُ أنا في الكلام أوّلاً:

- ألا تجد هذا بشعاً؟ اتّهامنا بالسرقة هكذا؟ أليس كذلك؟

أجاب رونالد "نعم" دون اقتناع. ثمّ غرقنا مجدّداً في الصمت.

- كنتُ أظنّ ويلي شخصاً أفضل بكثير، (قلتُ أنا متظاهراً بالغضب)، وأنتَ؟

قال "نعم" أخرى، بالكاد يمكن سماعها، ثمّ:

- يجب أن أتركَكَ الآن، إلى اللقاء.

جاء ذهابه مباغتاً، لذلك تفاجأتُ إلى الحدّ الذي لم يخطر ببالي أن أردّ تحيّته المقتضبة.

وحيداً أكملتُ طريقي. "لقد كانت غلطة الثلج، فلولاها لم أكن لأبقى كل ذلك الوقت في بيت ويلي منتظراً أن تهدأ العاصفة، إنها غلطة الطرد البريدي الذي أرسله أخوه! لو لم يأتِ في ذلك الوقت تحديداً، لم يكن ويلي ليخرج من الغرفة، إنها غلطة رونالد، لو أنه لم يتبع ويلي ليتفرّج على الصور، لم أكن "لآخذ" (اللفظ الحقيقي بدا لي قبيحاً جدًّاً، ففضّلتُ استبداله هذا) الطوابع أبداً."

تتكاتف الصدف دائماً لخلق اللحظة المناسبة! إلى حدّ أن تساءلت إذا ما كان الرّبّ هنالك أيضاً لفعل شيء ما.

"نعم، هو هذا! الرّبّ هو الذي رتّب كل شيء. لقد أرسل عاصفة الثلج عمداً، هو مَنْ هيّأ عناصر فعلتي اليوم أكثر من أيّ شخص آخر، وهو الذي دفعني لأخذ الطوابع ... ولكنْ، نعم، ولهذا كنتُ أشعر بدوخة وأنا آخذها، ذلك الإحساس بالعجز عن السيطرة عمّا أفعله. إنها ليست غلطتي!"

ولكنْ، لا! ما هذا الغباء؟! الرّبّ - لو كان الرّبّ فعلاً على دراية بفعلتي - كانت ستكون لديه عدّة مهام أخرى غير تتبّعي والاهتمام بما أفعله. ولقد أثبت ذلك جيِّداً عندما سألتُهُ معجزة. إنه يسخر من هاته الطوابع، كما يسخر من نَدبَتي. لا، أنا مُجبَر للأسف على قبول الأمر: أنني سرقتُ. الخطأ كان خطئي، وليس خطأ أيّ كان. أنا مَنْ صنع الفخّ، فخّي، لكي أسقط فيه.

بشكل آلي، تبعتُ مثل العادة الحدائقَ الخاصّة أكثر من الأرصفة، وفي العتمة، رأيتُ فجأة ركناً من جدران أحد البيوت منتصباً أمامي تذكّرتُهُ. هنا في هذا المكان بالضبط، جلستُ والسعادة تغمرني، ويومها أيضاً تأخّرتُ عن البيت، إنه اليوم الذي قال فيه "الرجل فوق الجبل": "انظروا، جيف أقوى ممّا ظنّنا!"

من جديد، تركتُ نفسي أسقط في ذلك الركن، رقائق ثلج ضخمة، مَحميّة من العواصف التي تُبعثرها في كل مكان، تتساقط ببطء وكسل وسط الصمت الكثيف. في المرّة الماضية، عندما كنتُ مدفوعاً بسعادة قصوى، رميتُ في الهواء حَفْنَات من الثلج، ولكنْ، اليوم يداي ترتعشان كأجنحة متكسّرة، فكّرتُ لو كان بإمكاني النشيج، سوف أرتاح كثيراً، حاولتُ، ولكن ذلك لم يُسفِر سوى عن بعض العطسات الحمقاء.

هل أنا مَنْ كان يجلس هنا في الثلج؟ بالطبع، مثل هذه الأشياء يمكن أن تحدث لأيّ كان. هذا التّحفّز الغريب لفعل أشياء معيّنة، حتّى لو كان سرقة. طمأنتْني ماما يوماً: "تشعر أنكَ مدفوع لفعل أشياء سيّئة؟ ولكن هذا طبيعي جدًّا، يا صغيري. الأفكار الغريبة تمرّ بكل الأذهان. لكننا نطردها، وهذا كل شيء."

من الصعب التصديق أنني فعلاً نفس الشخص الذي مرّ قبل شهر على هذا المكان، وكانت السعادة تملؤه، الذي منذ ساعات قليلة جدًّاً اقتسم لوح الشكولاتة مع ويلي ورونالد. ولكنْ، رغم ذلك أنا ذلك الشخص الذي حاول أخذ حجر الكوارتز الذي كان في الحديقة، حادثة بلا خطورة بالطبع، ولكنْ، وقع إنقاذي من نفسي، بسبب صاحبة البيت التي سبقت فعلتي، وقدّمت لي الحجر كهدية. من ناحية أخرى، أنا رغبتُ في أخذ الحجر حتّى أعطيه لبوبي. ولكنْ، بالنسبة إلى الطوابع، الأمر مختلف: لم أكن مدفوعاً بأيّ مشاعر طيّبة قد تسمح لي الآن بتبرئة نفسي.

شعرتْني مُنهَكاً، مُنهَكاً جدًّاً عندما حاولتُ النهوض لإكمال طريقي، وآسفاً لإفساد زاوية الجدار هذه بأحزاني.

كانت أمّي واقفة عند الباب، تنتظرني مع بوبي. ملامحها متجهّمة وقلقة. ضغطت عليّ بين يَدَيْها وهي تعانقني:

- أين كنتَ؟ ولكنْ، أين كنتَ؟ بابا خرج ليبحث عنكَ. صغيري، لا تعد لفعل هذا أبداً. هل تعدني؟ كنّا نتساءل ما إذا ... في النهاية أيّ شيء كان يمكن أن يحدث لكَ.

- أوه، ماما، توقّفي، أنا هنا، لا؟ إذنْ؟

كانت أوّل مرّة في حياتي أشعر فيها بالضيق من محبّتها واهتمامها المفرط.

عاد أبي في تلك اللحظة. قالت له أمّي مشدوهة:

- أنتَ لا تعرف الأجمل بعد. أمْرَضَنَا من فرط القلق عليه، وعندما عاد لم يكلّف نفسه أكثر من أن يطلب منّي ويترجّاني أن أصمت.

- جيف، (قال أبي بغضب)، من حقّ ماما أن تعرف أين كنتَ، ومن هنا فصاعداً، عندما ترغب بالعودة بعد الساعة الخامسة، عليكَ أن تُعلمنا قبل ذلك. هذا أمر!

دفعني بوبي بيده على صدري بلطف قائلاً:

- جيف، لقد تأخّرتَ ..

وخرتْني الطوابع، فأبعدتُ يد بوبي عنّي بفظاظة:

- حسناً، وماذا بعد؟

تسلّقتُ الدرج راكضاً، لألوذ بغرفتي، بينما أغلق الباب سمعتُ:

- ولكنْ، ما به؟

- منزعج ربمّا ... دعه وشأنه ...

انتظرتُ لبعض الوقت خشية أن يصعد بابا، ويصفعني، ثمّ نزعتُ قميصي، سقطت الطوابع فوق السّجّاد، وبقي اثنان منها ملتصقَيْن بلحمي. سارعتُ لاقتلاعها، فتمزّق أحدهما. كان طَابَع "أذربيدجان"، عندئذ سمعتُ صوت ويلي يتردّد داخل رأسي: "وطَابَع أذربيدجان، الأصفر المربّع، أين اختفى؟"

"لو صعدتْ ماما أو بابا إلى غرفتي الآن، ما عساي أفعل؟" قلتُ لنفسي والخوف يملؤني. لملمتُ قِطَع الورق الملوّنة تلك، ووضعتُها على الطاولة، ثمّ خلطتُها مع طوابعي الأخرى، مطمئناً أنه بهذه الطريقة لا يمكن لأحد، باستثناء ويلي، أن يتعرّف عليها. بالنسبة إليّ، كان تمييزها سهلاً للغاية!

هل يتوجّب عليّ بالتالي أن أبقى من الآن وصاعداً أسير الهلع الدائم والحذر الشديد والاحتياطات الخبيثة والدنيئة؟ وهل أملك غير ذلك؟ من المستحيل أن أعترف.

أين سأخفيها، إذنْ؟ من الطبيعيّ أن يكون من المستحيل التفكير في وضعها داخل ألبومي. بدأت أبحث داخل الغرفة عن مكان خفيّ، حيث لا تكتشفه أمّي في أثناء أعمال التنظيف اليومية.

في درج الكومودينة العلوي، كانت لديّ علبة، أضعها بجانب ألبومي.

كانت علبة حلوى قديمة، كرتونية صفراء، مكتوب على غلافها ماركة "ويتفيلدز سامبلر" ، كان بداخلها كمّاشات، وعدسة مكبّرة، ومظاريف، ومشابك أوراق. كان سطحها السفلي مكوّناً من طَبَقَتَيْن، لم تحويا حتّى ذلك الوقت إلا بياناً رسمياً لمنظّمة سرّيّة، وخصوصية جدًّاً. "جماعة العنكبوت الذئبي (هذا العنوان كان مُرفَقاً برسمة توضيحية: عنكبوت مرعب بأسنان مشعّرة).

"الرئيس: جيف."

"المساعد: بوبي."

أخذتُ إذنْ بيان المنظّمة، ووضعتُ مكانها الطوابع المسروقة. تنفّستُ براحة ما إن أعدتُ العلبة إلى مكانها في الدرج، وأغلقتُهُ، ندّتْ عنّي حتّى ضحكة صغيرة. ضحكة مريضة أربكتْني.

أخرجني صوت ماما من تلك الدوامة التي كنتُ فيها:

- إلى الطاولة!

جلستُ محترساً ومتوتّراً على الطاولة التي كان يتصاعد منها بخار لذيذ لطبق لحم البقر المطهوّ ببطء على نار هادئة مع الفاصولياء الخضراء. الجلوس محترساً داخل عائلتي! غير أن الكلام حول الطاولة ذلك اليوم لم يكن أقلّ صعوبة من ذلك.

- أرأيتَ، يا جيف، (قالت ماما)، قلتُ لكَ سيبدأ التلاميذ في التّحوّل إلى لطفاء معكَ، عاجلاً أو آجلاً كل ما كان يزعجكَ منهم سيختفي، كان ذلك متوقَّعاً.

- لسنا سعداء برؤيتكَ تعود متأخّراً إلى البيت، من دون أن تستأذن، (أكمل بابا)، ولكننا، في المقابل، سعداء، لأن أصدقاءكَ يحبّونك إلى حدّ استبقائكَ لوقت طويل معهم.

- ولكنْ، ليس تماماً، (غمغمتُ أنا)، الثلج ... حسناً، كانت تُثلج بقوّة، ممّا اضطرّني للانتظار.

- ويلي، هذا لطيف جدّاً معك بالفعل، (عادت ماما للحديث)، لا أحد من التلاميذ كان ودوداً بقدره معكَ، أليس كذلك، حسناً لماذا لا تردّ؟

هززتُ رأسي موافقاً هزّة خفيفة.

- ولكنْ، ما بكَ؟ هل أنتَ بخير؟ أتمنّى أنكما لم تتخاصما، لا؟ إذنْ، فيما هزّة الرأس هذه؟

- أوه ... ليس هنالك سبب.

قرّبت أمّي رأسها من وجهي، وتفحّصتْهُ:

- هل تبكي؟

- طبعاً لا! الثلج ضايق عينَيّ منذ قليل!

- لا تنزعج منّي، لقد سألتُ فقط، وهذا كل شيء.

في هذه اللحظة، سمعنا طرقاً عالياً على الباب، تجمّدتُ في مكاني، وغمغمتُ:

- مَن الذي سيأتينا في هذا الوقت؟ لا يجب أن نفتح.

- أتمنّى أن لا يكون ولداً كبيراً مثلكَ خائفاً! (قال أبي متّجهاً إلى الباب، ليفتحه).

التفتت ماما إليّ:

- ما بكَ، جيف؟ أنتَ شاحب، لماذا؟

خرج أبي، وألقى نظرة على الخارج، في النهاية، عاد وجلس:

- أحدهم يريد المزاح بالتأكيد، لم أجد أحداً في الخارج. ثمّة آثار لأقدام صغيرة على الثلج. هذه واحدة من الجارات الصغيرات. المخادعة الصغيرة بلا شكّ.

هربتُ بتفكيري بعيداً بينما كانوا يتكلّمون عن مثل هذه الدعابات السخيفة. بعد ذلك فتح أبي الراديو:

كانت الإذاعة تحتفل بالخسائر الثقيلة التي ألحقناها بقوّات الأعداء: "في أثناء المعركة البَحْرِيّة التي نشبت بالقرب من سواحل الأندوشين الفرنسية، وفي موانئها، تمّ تدمير خمس وعشرين قطعة بَحْرِيّة يابانية، بينها طرادة خفيفة، وعدد من المدمّرات بأطقمها، عن طريق طائرات، أقلعت من حاملة طائرات أميركية. كما تمّ تدمير تسع وثلاثين طائرة عدوّة. كما قال الأميرال نيميتز...".

- هل سمعتُم؟ تساءل (أبي متعجّباً)، خمس وعشرون سفينة، وتسع وثلاثون طائرة!

بالكاد أخطأنا هدفاً. لم نفوِّت شيئاً دون تدميره في هذه المعركة.

هذه المستجدّات التي قد تبدو للبعض مخيفة، جلبت لي بعض الراحة. لقد ألهتْني على الأقلّ عن التفكير فيما ارتكبتُه. ولكن هذه الهدنة لم تدم طويلاً، إذ قطعها بوبي:

- هل ويلي يحبّكَ كثيراً؟ هل ستبقى في بيته هكذا كل ليلة؟ أنا كنتُ أنتظركَ، قلتَ لي إننا سنلعب معاً "حراقة سفينة حربية"، لقد حضّرتُ كل شيء، القوافل، والمفرقعات، وكل شيء. لماذا لم تأتِ؟

- لم أعدكَ بشيء.

- هل تُريني طوابعكَ بعد العشاء، جيف؟ (قال بوبي)، هل عندكَ طوابع جديدة؟

- لا ... ليس عندي وقت الليلة.

- يجب أن تدعو ويلي إلى بيتنا يوماً بعد المدرسة، (قالت ماما). سوف أعدّ لكم كعكة من التي أطهوها بالتّفّاح، ما رأيكَ؟ ... حسناً، إنكَ لا تردّ، وهذا يعني أنكَ لا تريد.

- بلى ... (غمغمتُ أنا).

- قل لي، جيف، ذلك الطَّابَع الشَّفَّاف الشهير، هل رأيتَهُ مرّة أخرى لدى ويلي؟ هل هو نادر إلى هذه الدرجة؟ كم يساوي فعلاً؟

- أووو! لا أعرف شيئاً! (أجبتُهُ بحنق).

- ولكنْ، يا جيف، (قال بابا)، ما الذي يجري معكَ هذه الليلة؟

قاطعنا بوبي مصرّاً:

- أنا أيضاً سوف أعطيكَ طَابَع "باغود"، ولكنه أجمل بكثير من ذاك الذي أعطاه لكَ ويلي، سترى!

- أووو، اخرسْ، هل تستطيع؟ (هاجمتُهُ، وقد نفد صبري).

- جيف! (نطق أبي بحسم)، إذا لم يكن بإمكانكَ الرّدّ بأدب، فلا تقلْ شيئاً، واصعد إلى غرفتكَ. لم أركَ قطّ بمثل هذا السوء. انظر إلى أخيكَ، ألا تخجل من نفسكَ؟ إنه يبكي ...

- ليس صحيحاً، لستُ أبكي، (احتجّ بوبي تاركاً ملعقته تسقط من يده)، لأن البكاء يعني الجعجعة، وأنا لم أُخرِج أيّ صوت.

بعد وقت، وفي أثناء خروجي من الحمّام متوجّهاً إلى غرفتي، كي أنام، اعترضتْني ماما بقميص النوم، وقالت لي بصوت خفيض:

- إذنْ، جيف، احكِ لي، ما الذي حدث اليوم؟ هل لمّح لكَ أحدهم تلميحاً جارحاً؟ هل آذاكَ أحدهم؟ لا؟ إذنْ، ما الذي جرى؟ هيّا، تكلّمْ، لا ترغب بذلك؟ حسناً .. حسناً ...

ببطء، صعدتُ الدرج. توقّفتُ في المنتصف متردّداً لبعض الثواني. ربّما كان من الأفضل أن أعترف لها بكل شيء، كما كنتُ أفعل دائماً. ولكنْ، مستحيل، شعرتُ أنني كنتُ جزءاً من أمّي، وانفصلتُ، انفصلتُ عن الجميع. ما فعلتُهُ اليوم وضع حاجزاً بيني وبينهم. لا شيء أفظع من تحوّل الأقرباء إلى غرباء سوى فجوات الصمت هذه.

رأت أمّي، التي لا يخطئ حدسها أبداً، تردّدي، فتبعتْني بعينَيْها، ومن أسفل الدرج واقفة في الممرّ، خاطبتْني:

- ولكنْ، جيف، ماذا هناك؟ أنا هنا من أجل هذا. ثمّة شيء تريد قوله لي، وبدأتْ تخطو الدرجات، كي تصعد إليّ:

- لا، أريد أن أبقى وحيداً، (قلتُ).

ولكن كلمة "وحيداً" ضربتْني عميقاً، كما لو كانت تسخر منّي، فأنا لم أرغب طيلة حياتي أن أكون وحيداً.

- لا تريد؟ حسناً. تصبح على خير، جيف.

أسفتُ كثيراً وأنا أشعر في جملة "تصبح على خير" وأمّي تلفظها كثيراً من الحزن وخيبة الأمل، وضعفاً في حرارة مشاعرها المعتادة.

- ماما؟ ...

توقّفتْ من جديد في الممرّ:

- نعم؟

لا، لا أستطيع الاعتراف.

- تصبحين على خير، (قلتُ أخيراً).

- تصبح على خير، حبيبي.

داخل الغرفة، لم أستطع رفع عينَيّ عن المنضدة التي صنعها لي أبي، والتي أتّخذها ككومودينة، والتي تحمل علبة "الويتفيلدز سامبلر" ذات

القاعدة المضاعفة، سارعتُ لإطفاء النور والنوم، ولكن ضوء القمر استمرّ في إلقاء أشعّته على حوافّ المنضدة. أغلقتُ عينَيّ بقوّة، وفشلتُ، فقد كانتا تنفتحان تلقائياً، منجذبَتَيْن لا إرادياً إلى جسم المنضدة. أوليتُها ظهري، ورغم ذلك، ظللتُ أشعر بها ورائي، كما عندما نشعر أننا مراقَبون.

- ما الذي دفعني لأخذهم؟ كنتُ أردّد بداخلي بينما أتقلّب فوق السرير. وفكّرتُ أن ذلك قد يكون بسبب سخطي على حادثة "استلاف" حذائي العازل! ومشهد الفتاتَيْن في اليوم نفسه، ونقاط الدم التي على ذراعَيْهما؟ ذلك المشهد الذي أربكني كثيراً. ما الذي تمّ الاستيلاء عليه فيّ؟ ما الشيء الغريب الذي حصل لي؟ شيء لا يُفسَّر، لكنه حقيقي، لا يُرَى، ولكنه موجود! ألا أستحقّ الآن أن أحمل الاسم الذي لفظه أبي عدّة مرّات باحتقار؟! "منحرف"، مضيفاً أنه لو كان له ابنان كهؤلاء لكسّر رأسَيْهما!

من أين التقطتُ هذه الجرثومة؟ لو كنتُ أنتمي لعائلة غير مستقرّة، لاختلف الأمر. ولكنْ، لا، لا أعتقد ذلك، سأكون مذهولاً دائماً أمام فعلتي، حتّى لو استيقظتُ صباحاً، واكتشفت مكان يَدَيّ قوائم قرد.

هل يمكن أن يكون الرّبّ عارفاً بشيء ما؟ سألتُهُ بإصرار، طلبتُ منه أن يفسّر لي، ولكنه لم يجبْني.

خطر لي أن أقوم بمحاولة أخيرة معه، وطلبتُ منه من جديد أن يهبني معجزة، ولكنْ، هذه المرّة لم يكن الأمر متعلّقاً "بشَفَتِي الغليظة"، لم أطلب منه أن يجعلها كشفاه الآخرين. طلبتُ منه ببساطة أن يعيد خلال الليل كل هذه الطوابع إلى ويلي، أن يعودوا حيث كانوا، ويحتلّون مرّة أخرى أماكنهم داخل الألبوم. وأستيقظ أنا وقد تخفّفتُ من هذا الحِمل.

- أعرف طبعاً، أيّها الرّبّ، أنني لا أستحقّ ذلك. أنا أستحقّ أن تعاقبَني فقط. ولكنْ، كنْ طيّباً، أنا أعرف أنكَ طيّب ...

شكّ صغير بدأ يُدغدغ عقلي. سارعتُ لمرواغته، خشية أن يراه الرّبّ، ويغيّر أحكامه الجيّدة التي قد يحفظها لي.

- إن لم أؤمن بذلك جيّداً، (قلتُ لنفسي)، سوف أخسر المعجزة، مثلما حصل في المرّة الأخيرة مع شَفَتِي. الرّبّ سيفعلها. سيفعلها. سيفعلها!

حاولتُ النعاس. خوفي من يوم غد يحتلّني، الخوف من ويلي، خوف من رونالد، خوف ممّا يمكن أن يقولاه، خوف من غضب أبي المرعب، لو علم بالأمر، خوف من كل شيء.

رغم ذلك، تعلّقتُ بأمل صغير، أمل أن تحدث بعض المصادفات غير المنتظرة، فيمرّ كل شيء، ولا أخسر صداقة ويلي.

- أوه، يجب أن أُعاقَب. ولكنْ، من فضلكَ، عاقِبْني بطريقة أخرى، أرجوكَ، يا إلهي. أنا لا أستحقّ، أعرف ذلك ... ولكني آمل أن يكون إيماني صلباً مثل حبّة الخردل.

البرد والتعب ساعداني، ليأخذني النعاس، لا أعرف في أيّ ساعة بالضبط.

كم من الصعب أن تعيش مع شخص تكرهه، ما بالكَ لو أن هذا الشخص هو أنتَ نفسكَ؟!

في تلك الليلة، رأيتُ كابوساً لأوّل مرّة في حياتي، والذي يُفترَض أن تتبعه كوابيس أخرى كثيرة.

على كامل جسدي تنمو أشواك، وأوراق زهرة الشوك، كانت في البداية بيضاء ومغطّاة بالجليد، وبما أنها كانت آخذة في التّضخّم بسرعة، تحوّلت يداي وقَدَمَاي إلى جذوع هائلة، تكسوها أشواك مدبّبة كانت تجرحني، إذا ما أتيتُ أقلّ حركة. ذاب الجليد بتضخّم الجذوع التي كان لونها أخضر، يشعّ أكثر فأكثر. ظهرت براعم كبيرة جدًّا، وانفتحت، لتكشف عن زهور مخيفة كالمسوخ، صفراء، صفرة الطَّابَع الشَّفَّاف الشاحب ... استيقظتُ فزعاً على صوت صراخي، تلمّستُ ذراعي، لأطمئنّ أن ليس فوقها أشواك، ولا تلك الزهور المرعبة، عندما هدأتُ، استنتجتُ، والندم يأكلني، أن فِعلتي توغّلت فيّ حتّى آخر نقطة من كياني، لقد التهمتْ وشوّهتْ كل شيء، لم تستثني حتّى أزهاري الشوكية الجليدية الجميلة، التي لطالما أحببتُ تأمّلها على زجاج نوافذي. وأنها حوّلت حتّى الجمال القليل الذي تبقّى لي، إلى مصدر رعب.

(١١)

في الصباح، لم أُهرع لفَتْح جارور المنضدة، على العكس، كنتُ أقترب منه ببطء، خفتُ من هذا الاختبار، ولكنني مُجبَر على قبوله.لم أعجب مطلقاً من إيجاد الطوابع مثلما وضعتُها تماماً البارحة، وفي مكانها نفسه من العلبة. ولكنني، ومنذ ذلك الوقت، قرّرتُ أن لا أعتمد على المعجزات أبداً.

في طريقي إلى المدرسة، لم أتوقّف عن طَمْأنة نفسي. كل شيء قابل لأن يتمّ تداركه، وحتّى أساعد الحظّ، ولأُقوّي أملي، حرصتُ على إبقاء أصابعي مشبوكة، الوسطى فوق السّبّابة.

بما أنني كنتُ أحد الذين وصلوا متأخّرين، لم أستطع تبيّن موقف ويلي ولا رونالد، كنتُ متشوّقاً كثيراً لمعرفة ذلك، فلم أتوقّف عن الالتفات إليهما، ولكنهما كانا مركّزَيْن على عينَي الآنسة مارتال، وهي تشرح لنا لماذا ليس علينا الغشّ في اختبار الإملاء الذي ستقدّمه لنا بعد قليل.

انتهى الاختبار، فأخبرتنا أن المديرة تريدها، وستضطرّ إلى الذهاب لمكتبها، ثمّ عيّنت تلميذة، لتراقب الصّفّ في أثناء غيابها.

بمُجرّد خروجها، بدأ الهرج. أحد الأولاد الجالسين وراء ويلي وقف في المنتصف، وصرّح أن بإمكانه التّجشّؤ حسب الطلب.

- هيّا، نحن لا نطلب سوى رؤية ذلك.

- ابدأ، إذنْ. أراهنكَ على عشرة سينتات.

التفت إليه الجميع، منتبهين وضاحكين، وهو ليضمن انتباههم أكثر، قفز فوق طاولته المليئة برسوم "الجرافيتي"، سحب الهواء إلى صدره عميقاً، وحبسه، ثمّ نفخ خدَّيْه، احمرّ وجهه، وأخيراً استسلم.

بدأ الجميع في القهقهة والسخرية منه وهو يتخلّى - بمقاومة شديدة - عن سينتاته العشرة. ويلي بسبب التفاته لمشاهدة العرض، اضطرّ أن يصبح نظره مواجهاً لي، أشرتُ إليه محيّياً، فردّ التحية باقتضاب شديد، وبلا حماس.

غير أن رونالد الذي كان يتابعنا، قال بصوت مرتفع:

- إذنْ، أرجو أن تكون قد أخفيتَها جيِّداً، طوابع ويلي، ها؟ أيّها السارق الصغير.

سادت الفوضى كامل الصّفّ، الجميع يريد أن يعرف. القصّة تتكرّر في كل أركان القاعة في وقت واحد. في دوّامة من التمتمة كانوا يوجّهون لي ضحكات الاحتقار. منذ تلك اللحظة، سوف تبدأ، بالنسبة إليّ، رحلة كفاح، أشدّ قسوة من الأولى بكثير.

احتجّ ويلي، ونشب بينه وبين رونالد شجار عنيف، بصعوبة استطعت تمييز بعض الكلمات التي كانت تدور بينهما وسط صرخات الآخرين "سارق!"، "حقير!" والتي كانت تُمطَر عليّ من كل اتّجاه. ولكنني تمكّنتُ من الاستنتاج أن ويلي لم يكن سعيداً:

- لقد طلبتُ منكَ، يا رونالد أن لا تقول شيئاً، وأن تنتظر، لقد وعدتَني.

أمّا أنا، فقد شعرتُ بابتسامة الحزن، الابتسامة الخرقاء ذاتها التي

ارتسمت على وجهي في يوم المدرسة الأوّل في أثناء تقديمي، شعرتُ بها وقد عادت لتتربّع عليه.

الفوضى لفتت انتباه معلّمَتَيْن، فدخلتا بسرعة، وبدأتا خطبة مسهبة حول حسن التّصرّف والسلوك. عادت أخيراً الآنسة مارتال، وأنزلت علينا عقوبة جماعية صارمة "لو فعلنا ذلك ثانية".

في أثناء ساعة النحو، خطر لها أن تنادي على اسمي. كنتُ مضطرباً، لدرجة أني استغرقتُ دقائق، لأنتبه أنها تتوجّه بالكلام إليّ.

هكذا حصلتُ على صفر في الاختبار التطبيقي، وعلى سخريات الصّفّ.

تمنّيتُ أن أتحوّل إلى شيء صغير، لا يُرى، عندما بدأت الآنسة مارتال تقسّم على السبورة السوداء جملة تحتوي على كلمة: يسرق. لم يضيّعوا الفرصة. كل الصّفّ يطلق القهقهات، ويشيرون إليّ بأصابعهم:

- اسألي جيف!

- أوه! هذه الجملة من اختصاص "الشَّفَة الكبيرة"، إنه خبير!

- حسناً، تذكّروا أني حذّرتُكم جيِّداً. كل الصّفّ سيُحتَجَز لمدّة عشرين دقيقة بعد الحصّة! صرخت الآنسة مارتال.

في النهاية، احتجرتْنا بالكاد لعشر دقائق. كان ظاهراً أن العقوبة كانت مسلّطة عليها أكثر ممّا كانت علينا، بينما خوفي من لحظة الخروج كان يتصاعد، لو استطاعت عيناي فقط إيقاف عقارب هذه الساعة. أفكّر في الخطوات التي عليّ اتّخاذها. باختصار، عن الدور (يجب تسمية الأشياء بأسمائها) الذي يجب عليّ لعبه، اخترتُ في النهاية دور الغضب

والاعتراض العنيف (الذي أمقتُهُ أيضاً)، وسوف أُقدِم حسب الحاجة على تركهم يفتّشون غرفتي وكامل البيت، ففي نهاية الأمر، مَنْ سيحدس وجود الطوابع في العلبة ذات القاعدة المضاعفة؟

لم تتأخّر الفرصة لتأتي، ففي أثناء خروجنا من المدرسة، وجدتُ حشداً من الأولاد الذين يلعبون قرب النافورة، ويرشّون بعضهم بالماء المثلّج. أغلبهم كانوا ينتمون لصفوف أخرى، وبالكاد أعرفهم، ولكنهم، في المقابل، تعرّفوا عليّ فوراً.

- السارق! الشَّفَة الكبيرة سارق!

- ولكنْ، لا، ليس سارقاً، إنه سارق كبير!

- اذهبْ، أيّها الوغد!

كبحتُ دموعي، واحتججتُ بكل قواي. في الأثناء، وفي أعماق نفسي، كنتُ أجد أنني أستحقّ هذه التسميات، أكثر من الاضطهاد المسلّط عليّ سابقاً، والذي كنتُ أراه بلا وجه حقّ.

- ليس صحيحاً! كل هذا الكلام مُجرّد تلفيق، أين الأدلّة؟ ليس عندكم أدلّة!

- بالطبع، (ردّ رونالد)، بما أن كل الأدلّة بحوزتكَ!

ضحك الجميع، ورونالد ألقى نظرة على المجموعة بزهو وتفاخر.

- تبحثون عن طريقة لإخافتي، (صرختُ)، وأخيراً ها قد وجدتموها. برافو. دفعتُموني بعيداً منذ البداية، سخرتُم منّي منذ اليوم الأوّل، تذكّروا هذا جيّداً!

- كنّا محقّين! (ردّ رونالد)، مزهوّاً بحصاده لمزيد من الضحكات المعجبة.

- طبعاً! انظرْ، أعتقد أن الشَّفَة الكبيرة سيبدأ في البكاء.

- إنه يتباكى كفتاة.

- اسمعْ، تعال إلى هنا، أرنا شَفَتك الغليظة، ونعدكَ أن نجعل الأخرى مثلها.

وهبّت عاصفة من الضحك والسخريات.

- آه، لا تُلوِّثْ يَدَيْكَ. (قال رونالد)، لا يستحقّ العناء.

في تلك اللحظة، لم يعد بإمكان شيء ضبطي، صرختُ بكامل قواي، محاولاً تقييده بدوري:

- أنتَ مَن أخذ الطوابع. أنتَ وتحاول تبرئة نفسكَ عبر اتّهامي. أنتَ شخص كريه!

قال رونالد ساخراً:

- أنا آخذ الطوابع؟ أنتَ مجنون؟ بالمصروف الذي آخذه من والدي بإمكاني شراء طوابع أكثر عشر مرّات، وأجمل بكثير.

- ليكن، ولكنكَ أخذتَها فقط لتتّهمني، لأنكَ لم تحبّني قطّ. شعرتُ بذلك دائماً. فعلتَها فقط لتُحطّمني.

هذه الحجّة كان لها تأثيرها، فقد بدا لي أن الأولاد يفكّرون في الأمر.

اقتربت بعض الفتيات، رحتُ أدفع فرصتي المواتية إلى الأمام:

- تريد أن نتخاصم أنا وويلي، تلك هي مناورتكَ!

- تعتقد! أنا تركتُ ويلي يفتّشني، أنا، وليس أنتَ، إذنْ، اسأل ويلي الذي كان محقّاً، سترى ما سيقول لكَ. قل لنا لماذا لم تُمكِّن ويلي من تفتيشكَ؟ هيّا، قل.

- لأن هذا لا يجوز فعله بين الأصدقاء، تعرف هذا جيِّداً.

انفجروا جميعاً ضاحكين.

أحدهم قال:

- العذر الجميل. هل تعتقد أن هذا مُقنع؟ يا لكَ من أخرق!

- لا يجوز، لا يجوز، (قال آخر بنغمة موسيقية) وهو يقلّدني.

أنا نفسي تعجّبتُ من المخارج التي كنتُ أخترعها، لأنها كانت أقرب لمحاولة الأخذ بالثأر:

- لم يفتّشكَ فعلاً. بالكاد لمس جنبَيْكَ، ولم يفتّش حقّاً كل جيوبٍ ملابسكَ. هل تسمّي هذا تفتيشاً؟ تلك الطوابع كان باستطاعتكَ أن تخبّئها تحت حزامكَ مثلاً.

- ولكنْ، لا! (احتجّت فتاة، كنتُ بالكاد أعرفها، والتي كالجميع بدت مُلمّة بأدقّ التفاصيل)، وأكملت:

- رونالد، غادرَ الغرفة فوراً، لم يكن لديه الوقت. لقد كان مع ويلي. سارق! لقد خمّنّا ما تستحقّه منذ أوّل يوم لكَ معنا.

جاء ويلي أخيراً، وتدخّله أنقذني بلا شكّ من حفلة ضرب.

- دعوه وشأنه، قلتُ لكم دعوه وشأنه. وأنتَ رونالد، أيّها الثرثار الصغير، لم تستطع الوفاء بوعدكَ، هل يجب أن تفتنَ أينما ذهبتَ، ها؟ حسناً، ها قد تمّ الأمر، تستطيع أن تكون فخوراً. الآن دع جيف وشأنه. ألا ترى أنه أنحف منكَ؟ هيّا، اتركوه، قال بحزن وهو يُبعد الجميع، وأضاف: إنه نوع بائس.

بينما أبتعد، أدركتُ فعلاً أيّ خسارة فادحة هي خسارتي لويلي. أيّ مسافة شاسعة تفصل بين: "انظروا، جيف أقوى ممّا ظننا"، و"إنه نوع بائس."

في هذه اللحظة، تلقّيتُ ضربة قوية على ظهري، جعلتْني أسعل، كرة ثلج رُميتْ عليّ بعنف، ومن المستحيل معرفة الفاعل، فقد كانوا جميعاً عندما التفتُّ مُولّين ظهورهم إليّ.

بسبب الجبن - أعترف - طلبتُ من أمّي أن تسمح لي يومياً بالرجوع للبيت ساعة الغداء، فقد تخيّلتُ حجرة طعام المدرسة المزدحمة، والتي عند غياب رقيب تتحوّل إلى حلبة قتال من القرون الوسطى، حيث تتحوّل السكاكين إلى سيوف، والملاعق إلى رماح فاصولياء.

بين هذه الطاولات الملتصقة والمكتظّة أين بإمكاني الانزلاق دون أن أكون نقطة التصويب لكل القاعة؟

استغربت:

- ولكنكَ ذلك اليوم كنتَ سعيداً جدّاً بالتواجد في حجرة طعام المدرسة صحبة ويلي وأصدقائه. كم أنتَ مثير للحيرة! ... بالتأكيد، (أكملت وهي تضغط على المكواة فوق طاولة الكيّ)، أكون وحيدة دائماً عند منتصف النهار، وسيسعدني جدّاً أن تعود للبيت. لعلّكَ فكّرتَ في هذا، نعم! كم أنتَ لطيف! ولكنْ، لا بأس، يا صغيري، ابقَ مع أصدقائكَ في مطعم

المدرسة، وإذا كنتَ لا تريد، فافعل ما تشاء ... انظرْ، هذا قميصكَ، أترى ما وجدتُهُ في الجيب؟ كم مرّة طلبتُ منكَ إفراغ الجيوب قبل وضع الثياب في الغسيل؟ إنها غلطتي أيضاً، طبعاً، ولكنني أكون مشغولة أحياناً إلى الحدّ الذي أنسى فيه أن أفعل ذلك.

امتدّت يدها إليّ بعجينة صغيرة من الورق متلاشية ومتفسّخة الألوان، تذكّرتُ على الفور الطّابَع الشّفّاف الذي وضعتُهُ في جيبي مع بعض الطوابع الأخرى قبل أن أفتح زرّ القميص، تالف، مطحون، ومن المستحيل التّعرّف عليه! عندما عدتُ إلى البيت ليلة السرقة، كان توتّري أكبر من تذكّر هذه الطوابع التي في الجيب.

- أوه، ماما، (قلتُ آسفاً)، كان بإمكانكِ التّنبّه، كانوا جميلين جدّاً هؤلاء الطوابع.

- أنا آسفة، ولكنْ، يا جيف، أنت مسؤول بعض الشيء عمّا حصل أيضاً، هل تعرف؟

استدرتُ مبتعداً والعجينة السخيفة بين أصابعي، بدون أن أستطيع حتّى التمييز أيّها هو الطّابَع الشّفّاف.

"مسؤول بعض الشيء، فعلاً!" قلتُ لنفسي وأنا أضع ذلك الشيء في جيبي. الطّابَع المربّع المسنّن الذي سحرني جماله عندما كان ملصقاً على صفحة الألبوم، لم يعد إلا شيئاً بلا هوية ولا شكل، شيئاً قبيحاً كفعلتي.

كانت أمّي تراقبني:

- ولكنْ، تخلّصْ منها، لم يعد ثمّة سبب للاحتفاظ بها كما ترى، لماذا تضعهم في جيبكَ؟

- لأن ... (غمغمتُ)، ثمّ خرجتُ مسرعاً من الغرفة.

- يا لغرابة هذا الطفل!

في المدرسة، وكما توقّعتُ، لم تتوقّف عروض السخرية:

- لم نعد نراكَ في حجرة الطعام، نتمنّى أنكَ لستَ خائفاً منّا!

منذ ذلك الوقت، تحوّلتُ إلى عدوّ حقيقي لكل التلاميذ. كنتُ سأجزم أن تصرّفاتهم في الماضي كانت مظاهر صداقة، لو قارنتُها بما يفعلونه بي اليوم.

بات من المستحيل أن يُفوِّتوا أدنى فرصة للسخرية منّي، ولأن يُسرّبوا لي تلك الكلمة: - سارق!

- الشَّفَة الكبيرة وغد صغير!

واصلتُ الدفاع عن نفسي، ولم يردوا عليّ سوى بالسخريات. لم أكن قطّ محطّ اهتمام لهذا الحدّ، ولكنْ، الآن جميع العداوات باتت مُركَّزة عليّ، إلى درجة جعلتْهم ينسون كل مَنْ كانوا يسخرون منهم في السابق لسبب أو آخر، فالفتاة التي كان وجهها مغطّى بحَبّ الشباب مثلاً، عرفت إجازة حقيقية مذ ذلك الوقت.

- آه، لا أجد وشاحي، (قالت فتاة عندما كانت تأخذ معطفها من الخزانة)، أيّها الشَّفَة الكبيرة، هذا أنتَ؟

- إنه هو، بالطبع! (قال آخر وقد بدأ يفتّش في أشيائي، ثمّ يرميها على البلاط المُوحِل).

- إنكَ تضيّع وقتكَ، (تدخّل ثالث)، لابدّ وأنه أخفاها الآن. لا فائدة من

بحثكم، هذا خبير في التخبئة، أنا مثلا سرق لي علبة ألوان مائية، ومنذ ذلك اليوم، لم أرها، إذنْ، بإمكانكَ القول وداعاً لوشاحكَ!

- أنا أخذ منّي رسوماً هزلية ...

- قطعة طباشيري الزرقاء الجميلة اختفت ... الشَّفَة الكبيرة؟

لم أعرف مَنْ كان يفعل هذا، ولكنْ، منذ قصّة الطوابع، حصلت غزوة حقيقية. وآخرون بفضل حصانتهم كانوا يستمتعون على حسابي.

في آخر قاعة الصّفّ، وقريباً من النوافذ، كان هنالك قاموس ضخم مُتكوّن ممّا يزيد عن الثلاثة آلاف صفحة صالحة أيضاً لأن تكون الوسيط في تبادل بعض الملاحظات السّرّيّة بين الفتيات، أو الرسومات البذيئة بين الذُّكُور. مُتحجّجين بالبحث عن معلومة أو التأكّد منها عن طريق هذا الكتاب الكبير، صاحب الرسمة أو الملاحظة يحشرها خلسة بين إحدى صفحات الكتاب الحاملة عادة للكلمة المحرّمة، ليذهب صديقه المتواطئ معه، ليبحث عنها، ويقرأها.

في أحد الأيّام، تلقّيتُ ضربة على رأسي بكرة صغيرة من الورق. استدرتُ، فوشوش لي رونالد وآخرون بأن أذهب إلى القاموس، والبحث عن كلمة "يأخذ خلسة". زعمتُ في البداية أنني لم أفهمهم، ثمّ مدفوعاً بفضول حارق جازفتُ. بين الصفحات، وجدتُ رسماً كاريكاتورياً لي غاية في الوحشية، رسموا شَفَتي، واستبدلوا بقَدَمِي قَدَم عصفور قبيحة، تقبض بين أصابعها على طوابع.

وحده ويلي مَنْ يمتلك قوّة التأثير على الآخرين، والقادر على وضع حدّ لهذه الوضعية المنفلتة. عليّ بأيّ ثمن أن أجد تفسيراً يقتنع به، ولكن

المشكلة أنه لا يكون وحيداً أبداً. في النهاية، وفي ظهيرة أحد الأيّام في أثناء فترة الاستراحة بين الحصص، صادفتُهُ بالقرب من المغاسل. ومن دون النظر إليّ، بلّل يَدَيْه بالماء، ونحّى جانباً خصلته الصفراء عن جبينه.

سوف يذهب، كما لو أنه لم يرني، ولكني لحقتُ به:

- ويلي، لماذا فعلتَ هذا أنتَ ورونالد؟ لماذا اتّهمتُماني بالسرقة؟ تعلم جيّداً أن هذا ليس صحيحاً؟ أهذا من أجل أن تراني أعاني؟

- لا تبكِ، إنكَ تضيّع وقتكَ، كان عليكَ أن لا تأخذها، طوابعي ...

- ليس صحيحاً، ليس صحيحاً! ليس عندكَ أيّ دليل ...

- دعنا نرَ، (قال لي بكثير من الهدوء)، مَنْ غيركَ فعلها؟

- رونالد، إنه هو! وإن لم يكن هو، فأنتَ بالتأكيد مَنْ خبّأها، لتستطيع اتّهامي.

- هل ترى أنني يمكن أن أفعل ذلك؟ حسناً، هل هذا الفعل يشبهني؟ ثمّ متى قمتُ به؟

- ورونالد؟ هل تصدّق أيّ شيء يقوله لكَ؟

- من الواضح أنه لم يأخذها، لقد لحقني فوراً إلى الصالون، ثمّ إنني فتّشتُهُ.

- ولكنْ، ما الذي منعكَ من تفتيشي أنا أيضاً؟ طلبتُ منكَ أن تفعل، لماذا رفضتَ؟

- لأنكَ قمتَ بابتزازي، وخيّرتَني بين تفتيشكَ وبين الصداقة والشرف.

بالنسبة إلى الصداقة ... حسناً لم يكن لأحد غيركَ أن يأخذها، إنكَ تعرف هذا جيِّداً.

- غير صحيح!

وهنا أمام تلك المغاسل، حيث كانت تنقّط بصوت عال حنفية غير مغلقة بشكل جيّد، ارتميتُ بين ذراعَيْه.

- لا تبكِ، جيف ...

لم يدفعني بعيداً عنه. على العكس، أخذني بين ذراعَيْه بما يشبه الحنو. لم يعد لصوته تلك النبرة الجادّة، إنما بنبرة "الرجل فوق الجبل" قال لي:

- أنا أحبّكَ كثيراً، تعرف هذا. لو أن رونالد فقط وفى بوعده ...

- كيف؟ (سألتُ متظاهراً بعدم الفَهْم). أيّ وعد؟

- نعم، وعده أن لا يقول شيئاً لأحد. سوف أنتظر أن تعيد لي تلك الطوابع، أنتظر، أنتظر دائماً. سوف أمهلكَ أسبوعاً، وبعد ذلك، إن لم تُعدها لي، سأضطرّ لضربكَ.

- هل ستفعل ذلك؟ ولكنني قلتُ لكَ إنكَ مخطئ، أعرف جيِّداً أن كل الدلائل تكرّس لاتّهامي، أنا نفسي لا أفهم ذلك، ولكنني لم أفعل، أقسم لكَ أنني لم أفعلها.

ظلّ يتأمّل عينَيّ طويلاً، كأنما يسبر أغوارهما باحثاً عن أيّ تفسير، ثمّ تركني، وابتعد، كرّر بهدوء:

- خلال أسبوع، ستنال عقابكَ، بعد الدرس، في ساحة الاستراحة.

كرّرتُ بمكر حجّتي الوحيدة والبائسة:

- أنتَ مَنْ أخفى الطوابع، تبحث عن جعلي تعيساً فقط.

كان قد غادر المكان بالفعل عندما قال:

- جيف البائس، كم تبدو قبيحاً عندما تكذب.

لم أجد ما أردّ به عليه، كلامه تركني مسمّراً حيث أنا. بقيتُ واقفاً لوقت طويل، جامداً. أنا قبيح بالفعل. ثمّة كائن بداخلي مات، في المقابل، بقي اثنان: لصّ وممثّل يحمي ذلك اللصّ.

هل أستطيع بعد الآن إعادة الطوابع إلى ويلي متوسّلاً إليه أن يقول إنه وجدها؟ لا، كان ثمّة رونالد، هذا الشاهد الثرثار. ثمّ قلتُ لنفسي وأنا أسحب العجينة الصغيرة من جيبي، الطَّابَع الشَّفَّاف اختفت معالمه، وبات من المستحيل التّعرّف إليه. بأيّ حقّ، سأطالب بتصديقي، إذا استظهرتُ بهذا الشيء البائس؟

أعدتُ العجينة إلى جيبي، دون تركها من يدي. أنا أمقتُها، ولكنها تسحرني. لن أرميها.

- ماذا تفعل هنا؟ (قال المنظّف الذي دخل وسط سحابة من روائح موادّ التنظيف والمعقّمات القوية)، إلامَ تنظر؟ هل أنتَ الذي ترك هذه الحنفية مفتوحة؟

- لا، (قلتُ وأنا أُسارع لإغلاقها).

كانت قاسية، رغم ذلك نجحتُ في إغلاقها من المحاولة الأولى.

- جيّد، جيّد، (قال الرجل الطّيّب بنبرة ساخرة)، كم هو حاذق هذا الصغير!

حتّى مثل هذه الكلمات البريئة بتُّ أشعرها نوعاً من الاتّهام. لم يعد بإمكاني الشعور بالسلام، ولو لثانية واحدة. استسلمتُ رغم ذلك، لأني كنتُ مقتنعاً أنْ لا شيء يكفي لعقابي. تقبّلتُ كل التلميحات، وحتّى الأفعال الخبيثة غير المبرَّرة تجاهي، كانت تؤذيني، وذلك الأذى بالذات كان يحقّق لي الراحة، بقَدْر ما أعتقد أنني أستحقّه.

لم أستطع مغادرة الحمّام دون النظر في المرايا، حاولتُ أن أتحاشاها، ولكن جاذبيّتها كانت أشدّ قوّة. وأنا أنظر إلى صورتي، قلتُ بشكل غريزي، وبصوت مرتفع: "نوع بائس".

عامل التنظيف سمعني:

- ماذا، أيّها الماكر الصغير؟ هل هذا الكلام موجّه لي؟ سترى.

ترك ممسحته تسقط أرضاً، واندفع نحوي، هربتُ، فعاد إلى عمله متبرّماً وهو يقول:

- آه! يا للهول! أنا أكدح من أجلهم، وهذه طريقتهم لقول شكراً، يا لسوئهم، هؤلاء الأطفال!

(١٢)

في إحدى الحصص المسائية، شعرتُ أن الآنسة مارتال تبالغ في النظر إليّ بنظرات مليئة بالشّكّ، وبالفعل، في أثناء فترة الاستراحة، طلبت منّي البقاء بعد انتهاء الحصص، لأنها استدعت والدتي، وتريد أن تتناقش معنا نحن الاثنَيْن في موضوع مهمّ.

وجدتني أنتظر وحيداً داخل القاعة، ليس معي إلا المعلّمة، وحتّى أتفادى نظراتها ركّزتُ عينَيّ على لوحة معلّقة فوق الجدار، كنّا نحفظها عن ظهر قلب:

"هذه القاعة مهداة لروح إليوت ايمبسون إيلزورث، أوّل ناظر لمدرسة ماري نويل مورفري الابتدائية. ١٩٢٣- ١٩٣٤ ، والذي مات على رأس عمله، رأسه مرفوع، وضميره طاهر."

شعرتُ بالقلق والخوف عندما لمحتُ ماما مقبلة، خصوصاً بعدما رأيتُ علامات الضيق على وجهها.

قبل أن ترفعَ عينَيْها إلينا، طلبت منّا الآنسة مارتال أن ننتظرها لدقائق، حرّكت بعض الأوراق على مكتبها، مثل موظّف يبحث عن ترهيب مواطن، يقف أمامه.

- تريدين رؤيتي؟ (خاطرت أمّي، وتساءلت).

كنتُ أنتظر الأسوأ، متلهّفاً لمعرفة إلى أين سيسحبني ويصل بي هذا التّيّار الذي ألقاني جنوني به.

- نعم، سيّدتي، يجب أن تعرفي أن جيف يجد صعوبة في التأقلم، أو بالأحرى في ... لا أجد الكلمة!في الاندماج في الصّفّ. حسناً، أعلم أنه تلميذ جديد، وتغيير المدرسة مسألة صعبة دائماً. وقد لاحظتُ أن الموضوع لا يتعلق باختلاف الوسط الاجتماعيّ، لأنه لا يوجد هنا فقط أولاد الأطباء ورجال الأعمال. هنالك آخرون وهم متكيّفون بشكل جيّد جدّاً. وبالتالي المشكلة ليست في هذا بالتأكيد، لأننا هنا أيضاً نحرص على أن نغرس في تلامذتنا روح الديمقراطية والتعاون والمساواة. أنا أظنّ أن مسألة التّكيّف والمشاركة صعبة على جيف فقط.

"لقد لاحظتُ في مناسبات عديدة أنه لا يقوم بأيّ مجهود، ليشارك زملاءه ألعابهم في أثناء فترة الاستراحة، وبالفعل دعوتُ التلاميذ الآخرين أن يُشركوه معهم. ولكنه لم يكن متحمّساً بما يكفي. يجب أن يكون هنالك سبب ...

"اعذريني لأني أقول كل هذا الكلام أمام ولدكِ. ولكنه سيستفيد منه لاحقاً، هذه نظريّتي، فرصة ليكون اجتماعياً في المستقبل. لابدّ وأنكِ تعرفين مثلي أنه لو كان من المهمّ تعليم الطفل التاريخ والنحو، فمن الأهمّ صنع كائن متكيّف تماماً مع محيطه الاجتماعي، وهذا تحديداً ما يشكو منه جيف، أنا لا أريد تعقيده، على العكس تماماً...".

- ما الأمر؟ (سألت ماما بصبر نافد)، لقد ناديتِني من أجلِ شيء آخر، أنا متأكّدة.

- حسناً، جيف تحوّل قليلاً إلى حالم منذ بعض الوقت. يجب أن يعيد كل امتحاناته، عندما أطرح عليه سؤالاً، يبدو لي غائباً تماماً، ولكنْ، ثمّة ما هو أخطر، فقد سمعتُ ذلك اليوم في أثناء ساعة التاريخ، عندما كان موضوع الدرس حول قانون الطوابع، وفجأة بدأ كل الصّفّ في إطلاق الوشوشات والنكات.

- إلى أين تريدين الوصول؟

- سأقول لكِ. في ذلك اليوم نفسه، وبما أنني استغربتُ جدّاً من ردّ فعلهم، تطوّعت فتاتان في أثناء الاستراحة، لتحكيا لي القصّة. يبدو أن جيف متّهم بعدد من السرقات، ومتّهم بالذات بسرقة ألبوم طوابع، يعود إلى ويلي ألدريدج، يساوي مئات من الدولارات.

- ليس صحيحاً، ليس صحيحاً! (صرختُ أنا محتجّاً).

- لا تُقاطعني، (أكملت الآنسة مارتال)، هذه الاتّهامات ليست صحيحة، حسناً، أرغب بشدّة عدم تصديقها. ولكنها تُظهِر في المقابل إلى أيّ حدّ فشل جيف في الاندماج بين زملائه في الصّفّ.

- مستحيل، (صرخت أمّي مندهشة)، جيف فوق كل الشكوك، أؤكّد لك. لو أنه فعل أيّ شيء - السرقة على سبيل المثال - سأقول لكِ ذلك بوضوح، ولكنني أقسم أنه أمر لا يُصدَّق. لقد أهدى لويلي هذا نفسه باقة طوابع بمناسبة عيد الميلاد. إذنْ، هل تعتقدين حقّاً أن صبياً قادراً على إتيان هذه الحركة سوف يقدر على السرقة في الوقت نفسه، بل وسرقة الشخص نفسه بعد أسابيع قليلة؟

- ولكنكِ لم تتركيني أشرح كلامي، (قالت الآنسة مارتال)، أنا لم أتّهم

ابنكِ أبداً بأيّ شيء، لقد قلتُ ببساطة إن هذه الافتراءات ... حسناً هذه الاتّهامات تشير إلى فشل من طرف جيف في التأقلم مع هذا الوسط الاجتماعي.

- أيّ وسط اجتماعي؟ (سألت أمّي مجروحة نوعاً ما).

- أوه، لا أقصد أيّ نوع من التحقير، ولستُ أعني الادّعاء أن هذا الوسط مختلف عن وسطكم. مثلما شرحتُ لكِ، إنها روح المساواة ما تسيطر وتحكم هنا، باختصار ثمّة حتماً بعض الاختلافات في ... المناخ، الوضع، ربّما أشياء من هذا القبيل هي ما جعلت مسألة الاندماج صعبة، بالنسبة إلى جيف.

- باختصار ... (قالت أمّي بإصرار)، لماذا طلبتِ حضوري اليوم؟

- حسناً، ببساطة، لتساعديني، كي نتمكّن معاً من مساعدة هذا الطفل، مساعدته ليندمج ...

عندما خرجنا من عند الآنسة مارتال، كنّا مضطربين أنا وأمّي، ولكنّ ليس للأسباب نفسها. ماما مشدوهة، غاضبة، حزينة أن "صغيرها جيف المسكين، متّهم ظلماً"، أمّا أنا، فقد كنتُ أصارع الظّنّ أنه عاجلاً أو آجلاً هذا الوباء سيشمل المنزل. ولم أكن أقلّ تشاؤماً من استنتاج أن ذلك قد حصل فعلاً.

أمسكت أمّي يدي، ومشينا معاً بين الثلوج إلى المنزل. ولكنني شعرتُ أني لا أستحقّ هذه اليد، فعثرتُ سريعاً على ذريعة:

- أحبّ أن تمسكي يدي ماما، بالطبع، ولكنكِ تفهمين، لو رآني أحد التلاميذ ... أنتِ لا تريدين لي ذلك، صحيح؟

- بالتأكيد، لا، يا ولدي.

سحبتُ يدي، وحشرتُها داخل جيبي، حيث عثرتُ على تلك العجينة المضحكة. نظرت إليّ أمّي مباشرة في عينَيّ، وقالت:

- جيف، أحبّ الأجوبة الصريحة، لأنها تُطمئنني، وبعدها لا أعود للتفكير أبداً. بالطبع أنا لا أستطيع أن أصدّق دقيقة واحدة بأنكَ سرقتَ أيّ شيء مهما كان. ولكنْ، أقسم لي فقط أنكَ لم تأخذ شيئاً.

ثمّة أسئلة تُرمى للحصول على جواب إيجابي إلى الحدّ الذي يستحيل معها أن لا تفعل.

- أقسم.

بالنسبة إليّ، ولها أيضاً، كان يجب أن أكذب.

- حسناً، جيف، هذا كل ما أريد سماعه.

بدا لي أنها تنفّست براحة، السلام الذي منحه لها جوابي أعانني على تحمّل كذبي. ولكنْ، بالنسبة إليها كان هذا السلام قصيراً جدًّاً، بسرعة عاد سخطها للتصاعد، وفور دخولنا إلى المنزل، انفجرت أمام أبي:

- هذا فظيع! هؤلاء الصغار يتّهمون جيف بالسرقة! ولن تتوقّع الأجمل بعد. مَنْ أطلق هذه الشائعات، هو ويلي.

- لا، (غمغمتُ أنا)، ليس ويلي مَنْ أطلقها، إنه رونالد.

- رونالد؟ (اندهشت أمّي)، ولكنْ، أليسوا طوابع ويلي؟

- نعم، لكنْ ...

وحكيتُ لهم القصّة، أو بالأحرى أكثر ما يمكن من الحقيقة، والتي لم تكن في الواقع جزءاً مهمّاً أو رئيساً، إلا أنني حكيتُ بطريقة، وضعتُ بها كل شيء فوق ظهر رونالد:

- إذنْ، كل هذا أعطى انطباعاً أنني مَنْ قام بالفعلة، بما أنني بقيتُ لوقت طويل وحيداً داخل الغرفة، كل الأدلّة الظاهرة كانت ضدّي، ولم أجد ما أجاوب به، لم أفهم أيّ شيء. هل رونالد هو مَنْ قام بأخذها أم ويلي نفسه؟ لا أعرف شيئاً.

اكتشفتُ سوء موهبتي في الكذب. أمّا ما لم يكن زيفاً، فهو ما أُبديه من تجهّم وعبوس.

- انظر إليه، (قالت أمّي وهي تمنع بمشقّة دموعها)، انظر إلى الحالة التي أوصلوا طفلنا المسكين جيف إليها، هؤلاء الأولاد السّيّئون، ليس بإمكانهم حتّى التفكير في الأذى الذي سيتسبّبون به للآخرين.

"أنا من ضمن هؤلاء أيضاً"، (فكّرتُ بمرارة).

اقتربت أمّي منّي، وداعبت شَعْري بحُبّ، وقالت:

- بسبب هذا كنتَ حزيناً إلى ذلك الحدّ في تلك الليلة؟ عندما كنتَ تريد أن تقول لي شيئاً وتردّدتَ؟ ولكنْ، لماذا لم تخبرني آنذاك؟ قل لماذا؟

- لا أعرف، (غمغمتُ أنا).

ثمّ تحدّثنا عن المشكل الذي طرحته الآنسة مارتال والمتعلّق بـ "اندماجي الاجتماعي".

تساءل بابا الذي بدا حائراً:

- ولكنْ، أنا لا أفهم لماذا لم تدافع عن نفسكَ. طبعاً أنتَ أصغر حجماً من الآخرين. ولكنْ، لم يكن عليك سوى تسديد بعض اللكمات بقبضة يدكَ، وسترى: سوف ينخدع هؤلاء البكّاؤون الكبار. أنا أيضاً كنتُ أضأل حجماً من الآخرين عندما كنتُ في مثل عمركَ، ولكنني كنتُ أفرض احترامي. إذا اتّهموكَ ظلماً، دافع عن نفسكَ، دافع عن الحقيقة. ومهما حصل سيكون من الأفضل دائماً أن تخسر معركة وأنت على حقّ من أن تتصرّف كجبان، حتّى وإن تعرّضتَ للأذى، فذلك لن يقتلكَ.

من وجهة نظره، كان أبي على حقّ، ولكنني لم أجد بداخلي من القوّة ما أدعم به رأياً كهذا.

- هيّا، (احتجّت ماما)، لا تُشجّعه على العراك. في المقابل، عليه فرض احترامه، نعم، ولكنْ، ليس بهذه الطريقة.

- اضربْ، إن اقتضى الأمر.

- فعلاً، (أكملتُ أنا بحزن). سأكون مُجبَراً على العراك بعد أسبوع. هدّدني ويلي بالضرب، إذا لم أُرجع له طوابعه قبل ذلك ... هكذا، (قلتُ وأنا أهزّ كتفَيّ)، كما ترون ليس لي سوى انتظار الضرب.

- ماذا! ويلي قال لكَ هذا؟ (صرخت أمّي). إنه أسوأ من الآخرين إذنْ في النهاية.

- ولكنْ لا ... (تمتمتُ أنا).

- بلى، لأنه تظاهر طويلاً باللطف في البداية. هل فكّرتَ يوماً أن

بإمكانه اتّهامكَ زوراً بعد أسابيع قليلة من تقديمكَ هدية له! يا للعلامات الزائفة!

بعد تفكير، قال أبي فجأة:

- يبدو لي هذا غريباً أيضاً، كيف يمكن أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة، أن يلصق الأطفال أشياء صغيرة ببعضهم البعض، هذا مألوف، ولكنْ، تهمة كهذه! طوابع تساوي ... كم كان الرَّقْم؟

- بضع مئات الدولارات، (جاوبت أمّي).

- ولكنْ، لا، (اعترضتُ أنا بحماس)، إنهم يبالغون كثيراً، بالإجمال، يمكن أن يساووا خمسة دولارات تقريباً، ولكنْ، ليس أكثر ...

صحيح أنني شعرتُ بالارتياح لقول شيء حقيقي مرّة واحدة، ولكنني ندمتُ على ما قلتُهُ عندما سألني أبي:

- كيف عرفتَ ذلك؟

أحبطني سؤال أبي، وتظاهرتُ بالغضب:

- آه! أنتَ مَنْ تتّهمني الآن! إنكَ مثل الآخرين!

سارعت أمّي لإنقاذي بدون أن تتقصّد ذلك:

- ولكنْ، طبعاً سيعرف، أو سيعرف حسب التقريب على الأقلّ، لقد تفرّج على هذه الطوابع لساعات مع ويلي، وقضوا وقتهم يبحثون عن ثمنها في الكاتالوج. وفي النهاية، الأمر لا يحتاج للتخمين، فويلي ليس غنياً، من أين سيأتي بالمال، ليشتري طوابع بهذا الثمن؟

جذبني أبي نحوه، وعانقني بقوّة وحبّ:

- سامحني، جيف، إن جعلتكَ تشعر أني أشكّ بكَ. هل تسامحني؟

وجدتُ نفسي مُجبَراً على قول "نعم". حاولتُ التّملّص بلطف من يَدَي والدي، مثلما فعلتُ مع أمّي في الطريق. كنتُ خجلاً من لمسهما.

قال أبي باستياء:

- أصبحت عواطفكَ باردة منذ فترة.

- ليس غريباً أن يحصل هذا، (شرحت أمّي التي أتت من جديد لنجدتي)، في وضعية كالتي وضعوه فيها، هؤلاء الوحوش الصغار. ضع نفسكَ مكانه، ماذا لو أنكَ أخذتَ طوابع لويلي بمناسبة رأس السنة، في الوقت الذي كان مصاباً فيه بالأنفلونزا، وفي النهاية يكافئكَ بهذا الشكل على محبّتكَ. آه! بإمكانكَ إعطاءه أيضاً دروساً في الولاء!

كان من المؤلم بالنسبة إليّ سماع مثل هذا الكلام عن ويلي.

- لا، لا أعتقد أنه ويلي، على الأغلب رونالد مَنْ أخذها ...

شعرتُ بالراحة لتبرئة ويلي، وإلصاق التهمة برونالد، أكملتُ بطريقة، تُورِطُه أكثر:

- ولكنْ، بلى! إنه هو. كان غيوراً منّي منذ اليوم الأوّل. يكرهني كثيراً، لأن ويلي يحبّني.

- اهدأ جيف، (قالت أمّي)، تعال إلى جانبي، إذا عانيتَ من أيّ شيء، فنحن هنا من أجل هذا، كما تعلم.

ولأنني لم أذهب إليها، فقد اقتربت هي منّي، ولكن يَدَيْها فَقَدَتَا القدرة بالنسبة إليّ على مسح كل أحزاني. أستطيع أن أكذب حتّى لا أُسبّب لهما الألم، حتّى لا أُفاقمَ أكثر وضعية النبذ التي أعاني منها، حتّى لا أُطرد من المدرسة (لأنني خائف من الطرد). ولكنني لا أستطيع قبول طمأنينة المداعبات التي أحصل عليها عن طريق الكذب.

عند أوّل تلامس بيننا، أفقد السيطرة على نفسي، يندهش والداي من ردّة فعلي، فأركض مبتعداً، ولا أتوقّف إلا متى دخلتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ بابها عليّ.

"دافع عن الحقيقة"، تُدوّي داخل رأسي مثل مزحة ثقيلة. بقيتُ مستلقياً لوقت طويل فوق السرير، مطبقاً على تلك العجينة المضحكة، أبحث عبثاً عن بعض آثار الطَّابَع الشَّفَّاف الجميل.

مسحتُ أنفي، ولبست مَنَامَتي فوق السرير. تركّزت عيناي فوق الكومودينة التي في داخلها "الويتفايلدز سامبلر". لم أجرؤ على فتح القاعدة المضاعفة للعلبة مجدّداً منذ اليوم الذي تلا حادثة السرقة.

فجأة راودتْني سعادة غريبة:

- الطوابع ليسوا هنا، أنا أعرف، الرّبّ أخذها منّي، أجل أجل، الرّبّ أعادها لويلي!

يا للأسف! حبل الأمل كان قصيراً جدّاً. الطوابع ما تزال هنا. في مكانها تماماً، ومثلما وضعتُها، الرّبّ لم يحرّكها حتّى.

شعرتُ بنفس شعور السِّحْر يغزوني من جديد. الطوابع هنا، داخل

هذه العلبة، طوابع ويلي! خوّفني هذا الافتتان، كما في ذلك اليوم، أمام قطرات الدم على ذراعَي تينك الفتاتَيْن.

لا أحد غيري سيعلم بأمرها! طوابع "الرجل فوق الجبل". "انظروا، جيف أقوى ممّا كنّا نظن"، أستحضر شعوري عندما طوّقتُ جسمه بكلتا يَدَيّ، ونزلتُ به حتّى أسفل المنحدر.

وسعادة أن أجلب له هدية! هل يمكن أن أجد مجدّداً هذه المحفّزات؟ مستحيل! ففي نظره، لم أعد سوى "نوع بائس".

طرق أحدهم باب غرفتي، مدفوعاً بالخوف، أغلقتُ القاعدة المضاعفة بسرعة البرق، أيُعقل أن يكون هذا ويلي، جاء ليبحث عن طوابعه هنا؟

- مَنْ هناك؟

يُطرَق الباب مرّة ثانية، وهذه المرّة بلطف شديد:

- هذا أنا، بوبي، هل أستطيع الدخول؟ لا؟ لماذا جيف؟

يجب أن أقولها - بما أنني هنا أقول كل شيء مهما كان حجم سوئه - ، الألم الذي شعرتُهُ في كلمة "لماذا" التي قالها بوبي أشعرتْني ببعض الراحة، وهذا نوع من اللؤم، نشعر أحياناً أن لؤم الآخرين أقلّ وطأة علينا ممّا يكون عندما يخرج منّا.

- لأنني لا أرغب برؤيتكَ، هذا كل شيء. أما زلتَ هنا؟ (قلتُ).

- أريد أن أعرف ماذا تريد لعيد ميلادكَ؟

- لا شيء! أن تدعني وشأني، فقط.

سمعتُ خطواته تنزل الدرج مجدّداً. امتلأتُ بالندم، ورغبتُ بمناداته. ثمّ امتنعتُ.

بيد مرتجفة، فتحتُ من جديد القاعدة المضاعفة، وفي اللحظة نفسها، خطرت لي فكرة، والداي ليس لديهما معلومات عن الطوابع المسروقة، إذنْ، لمَ أخشى أن يروها؟

سحرتْني هذه الفكرة، وبعناية، أخرجتُهم، ونظّمتُهم بشكل جميل في عدّة حافظات أوراق من السيلوفان، ونزلتُ.

- انظر، بابا، ألا تجدها جميلة هذه الطوابع؟

- نعم، جيف، طبعاً، (وهو يلقي نظرة سريعة عليها)، ولكنْ، لا تهرب مرّة أخرى مثلما فعلتَ منذ قليل. لقد أزعجتَ والدتكَ، و...

- انظرْ بابا، (قلتُ بإصرار)، كيف تجد طوابع "المارتينيك" هذه؟ (نطقتُها "مارتينيكيو")، ولكنكَ لا تنظر إليها!

- إنكَ لا تسمعني مطلقاً. قلتُ لكَ إنكَ أزعجتَ والدتكَ، أحسّتْ أنكَ لم تعد تُحبّها كالسابق.

ظهر بوبي على باب الصالون، وبدأ يتقدّم منّي بتردّد، لم يُبده أبداً في السابق.

- تعال، بوبي، هل ترى هذه الطوابع؟ ألا تجدها جميلة؟

عاد واثقاً ومُحِبّاً في ثانية واحدة، اقترب منّي، وتدفّقت كلماته بحماس لوقت طويل:

- وهذا أيضاً، دعني أرَ، أووو! ما أجمله! لونه ورديّ، يشبه قليلاً حجر الكوارتز الذي جلبتَهُ لي، (قال وهو يُقلّب طَابَعاً كان بجانب الطَّابَع الشَّفَّاف في ألبوم ويلي). هذا الرجل، أوو! كم هو مضحك! لديه أذنان كأذنيَ الباسات(*).

- ولكنْ، لا، إنها ما يُميّزه، انظر.

- قل لي جيف، مَنْ يكون هذا الرجل؟

- إنكَ تزعجني. لعلّه إمبراطور النمسا، من أين لي أن أعرف؟ هاتِهِ الآن حتّى أُريه لماما، هيّا، هاتِهِ ...

- أوه، جيف، انتظر، أرني هذا ...

- سوف تراه مع ماما، تعال، أين هي؟

- في الغرفة، بصدد الخياطة.

تركنا أبي لصحيفته، واندفعنا داخل الممرّ. سأقف الآن أمام أكبر خطر: مواجهة حدس ماما!

لماذا أتكبّد هذا الخطر؟ الرغبة في أن أُريهم الطوابع دون قول الحقيقة؟ الحاجة للاعتراف دون اعتراف؟ إعادة العثور على ظِلّ لذلك التقارب الذي كانت بيني وبينهم، والذي يسير نحو الاندثار؟ أو لاستعادة ذلك الشعور بالخطر والرعب؟ الشعور نفسه الذي اعتراني لحظة السرقة؟

تفحّصتْ أمّي الطوابعَ بأناة، اندهشت من أن ما فعلتُهُ أشعرها بالطمأنينة:

---

*) الباسات: فصيلة من الكلاب معروفة بقصر قوائمها وأذنَيْها الطويلَتَيْن المتدلّيَتَيْن.

- نعم، إنها جميلة جدًّا، أيّها أفضّل؟، حسناً هذه التي تحمل كل هذه الحيوانات النادرة. إلى أيّ بلد تعود؟ آه، نعم، من الموزمبيق، أنا سعيدة، جيف، برؤيتكَ تعود إلى هواياتكَ، ولا تعطي أهمّيّة كبيرة لكل تلك القصص. سترى قريباً جدًّا، لن نتحدّث عن هذا أبداً.

(١٣)

ذهبت أمّي لزيارة السّيّدة ألدريدج دون علمي، مؤمنة بضرورة التّحرّك لصالحي، محاولة تفادي الشجار المنتظر بعد أسبوع. وعليّ فيما بعد أن أكون مديناً لها بهذا التّدخّل، لأنني أفترض أنها نجحت بالفعل في تفاديه، إذ تكهّنت بكل الخطوات التي ستتّخذها لاحقاً السّيّدة ألدريدج والآنسة مارتال. فالسّيّدة ألدريدج تحمّست بدورها لتحذير الآنسة مارتال.

هذه الأخيرة، تصرّفت بالتأكيد، بشكل جيّد، هي أيضاً تحرّكت لصالحي أمام التلاميذ، وأمرتْهم أن يكونوا لطيفين معي، وأن يتوقّفوا عن اضطهادي.

- ... وأتكلّم بالخصوص عن ويلي. أ (كانت تقول ويلي.أ لتتفادى أيّ اختلاط في الأسماء مع تلميذَيْن آخرَيْن، يُدعيان ويلي، كانت تناديهما ويلي. ك وويلي. س). ويلي.أ هدّد جيف بسبب سرقة ... هيّا، اصمتوا، لا تضحكوا، وإلا ستُعاقَبون، ليس ثمّة في الأمر ما يُضحِك! إذنْ، وباختصار، ليكن في علمكم جميعاً: لا يجب تخويف تلامذة آخرين. ضعوا أنفسكم في مكانهم. ولكنْ، نعم، لا تبتسموا، فكّروا، ضعوا أنفسكم في مكانهم. حتّى لو كانوا يستحقّون (أضرب مثالاً فقط، لأنني لا أظنّ أن الحالة هذه بالنسبة إلى جيف) حتّى لو يستحقّون، لا يجب تحقيق العدالة بأنفسنا. لماذا لا تأتون لاستشارتي في هذه المشكلة أو تلك؟

بعد ذلك، استأنفت الآنسة مارتال درسها الذي تمّ قَطْعُهُ بهذا الحديث. ولكن كلماتها بقيت تحوم في الجوّ، وتُثقله. أمّا بقية اليوم، فقد

كان بالنسبة إليّ غير قابل للمواصلة. كان أسوأ من أيّ وقت مضى. كلّما التقت عيناي بعينَي تلميذ، كان يلتفت إلى الناحية الأخرى فوراً بتقزّز. أو على العكس، يُثبِّتون أعينهم عليّ راسمين علامات الاحتقار فوق وجوههم.

سمعتُ فتاة تقول لصديقتها:

- جيف "مختلّ"، هل تعرفين؟ أرادت أمّي أن تنظر في إمكانية اتّخاذ إجراء لمنع الأطفال المختلّين من الاختلاط بالأطفال العاديّيْن مثلنا، ولكنْ، يبدو أن ذلك لم يكن سهلاً ...

الفتاة التي تجلس على يساري، ظلّت طيلة فترة ما بعد الظهيرة توشوش لي بلا انقطاع:

- قمامة! هذا أنتَ. قُلْها، أيّها "الشَّفَة الكبيرة"، قلْ إنكَ قمامة، قلْ!

كل الأيّام، حتّى في تلك الأوقات التي لا أكون فيها مستهدَفاً من قِبَلهم، ظللتُ محافظاً على ذلك التّأثّر البدني تجاه ذلك العداء الظالم والخانق، تماماً كما لو أنني داخل قفص.

في أحد الأيّام، وفي طريق العودة إلى البيت، مررتُ أمام المنحدر نفسه الذي قبل نويل لعبنا فيه "الرجل فوق الجبل". لم يكن ويلي هناك، ولكنْ، كان ثمّة ثلج كثير، وكل المدرسة تستغل ذلك للتزحلق من أعلى إلى أسفل. أولاد كُثُر يرتدون وشاح الكشفية، لأن اليوم كان أربعاء، وهو اليوم الذي يقيمون فيه اجتماعهم.

كانت الأجواء عفوية ومنظّمة في الوقت نفسه، كما لو أنها فرقة باليه. هل كانوا يضحكون؟ الجميع كان يضحك. هل كانوا يتراشقون بكرات الثلج؟ الكلّ تراشق. أيّ فرح كان! وأيّ حزن للمُقصَى!

البعض كانوا يلعبون لعبة الحرب، وبعيداً عنهم، صففتْ مجموعة من الأولاد ثلاثة علب مصبرات قديمة، وألصقوا عليها ملصقات، تُمثّل: هتلر، طوغو، وموسيليني، واتّخذوهم أهدافاً لتصويب كرات الثلج،وكلّما سجّل أحدهم هدفاً، رسم علامة على الأرض فوق قشرة الجليد. والجوّ تملؤه الصرخات. صرخات الفرحة.

انغمستُ في مشاهدة هذا العرض، ونسيتُ نفسي لوهلة، إلى درجة أني ضحكتُ، ضحكة صافية وسعيدة، استقبلتُها كما لو كانت صديقاً قديماً، لم أره منذ وقت طويل.

اقتربتُ، واستعددتُ لالتقاط كرتي الثلجية أنا الآخر، عندما صرخ أحدهم بقوّة، كما لو أنه يعوي:

- آه، ها هو "الشَّفَة الكبيرة"، الجبان! كان مرعوباً من ضربنا التأديبي له، فحكى كل شيء للآنسة مارتال. ثرثار! جبان!

- ولكنْ، لم يكن أنا مَنْ أخبرها، إنها ...

- طبعاً، ليس أنتَ مَنْ أخبرها، لا أحد أخبرها!

قامت عاصفة عارمة من الضحك والسخرية.

- انتبهوا للسارق! اسمعوا، يجب أن يذهب أحدكم لحراسة محافظنا. مع الشَّفَة الكبيرة لا نضمن أبداً ما يمكن أن يحدث!

تسمّرتُ في مكاني، أنظر إليهم مثل أبله فقط، مذهول، لا أعرف هل عليّ الذهاب أو البقاء!

- أوه، نعم، نعرفه جيِّداً!

قال تلميذ لم يكن معي حتّى في الصّفّ نفسه، فقد انتشرت القصّة

الآن في كامل المدرسة، وليعزّز الحراسة على المحفظات، مدّ ذراعَيْه أمامها في حركة مبالغة، كما لو أنه يريد حمايتها من خطر كبير جدّاً.

- اسمعوا، سوف نفعل معه، كما في الطوغو (قال أحد الأولاد الكشّافين وهو يرمي ناحيتي كرة ثلج).

- وماذا لو نعرّيه وننزع سرواله الداخلي؟

- فكرة جيّدة، سيكون هذا مُسلّياً.

الجلبة كانت في أوجها. والأولاد الكشّافة راحوا يُطلقون صرخات الهنود الحمر أو الذئاب.

- نعم هذا هو، انزعوا سرواله الداخلي! انزعوا سرواله الداخلي!

ومثل موجة عارمة، بدؤوا في النزول بسرعة خارقة من أعلى المنحدر، متّجهين نحوي.

في رمشة عين، ركضتُ هارباً. دون التّلفّت إلى الوراء، ركضتُ بكل قواي. ومن الخلف، جاءني صوت أحدهم، وهو لا بدّ ينتمي لأحد أقسام اللاتينية، يغنّي:

- سالوس جيفوس! بيانتوس! (مع السلامة جيف، إلى اللقاء).

لُذتُ بالحدائق الخاصّة، وركضت بين المرائب، بدون أن أقلق حول الاتّجاه، في النهاية، وجدتُ نفسي وسط حديقة عمومية شاسعة. هناك غرقتُ بين أسيجة سميكة من الشجر، لم يعد باستطاعتي الجري، وانقطع نَفَسي، انهرتُ. وكان سعالي لا ينقطع. ولحسن الحظّ، كانوا قد توقّفوا عن الجري ورائي، لأني شتّتُهم.

مرّة أخرى، رحتُ أفكّر في كل الأشياء التي أسفرتْ عنها فعلتي. وصل بي الحال إلى الهرب - خزي آخر - .

الأسوأ أنه هروب من الكشّافة، الفريق نفسه الذي وعدني ويلي بالانضمام إليه، وهو أمر لا سبيل للتفكير فيه اليوم!

خطر لي عزاء ضعيف: هذه المرّة لم أكن أملك الخيار. أبقى هناك ليُعرّوني، ويسخروا منّي؟ سوف يكون ذلك أسوأ. وكان ذلك سيصنع عجيناً من القيل والقال، وبالتالي فبين الإهانَتَيْن، يصبح الهرب أفضل.

لبثتُ داخل الحديقة، منهاراً من التعب، ساعلاً، بائساً، أخيراً نهضتُ باحثاً عن الاتّجاه الصحيح نحو البيت، وبالرغم من أن أحداً لا يلاحقني الآن، إلا أن الخوف لم يغادرني. اخترتُ طريقي بمكر وبراعة، ولكنْ، كان يتهيّأ لي، من وقت لآخر، أني أسمع صرخات الملاحقين. منذ ذلك اليوم، لم أعد أجرؤ على المسير فوق الأرصفة، أنا الذي فضّلتُ دائماً، من أجل حميميتها، المسارات الملتوية، والحدائق الخاصّة، الآن أنا أندم على كل الوقت الذي مضى، ولم أستغل فيه حُرّيّة الطُّرُقات.

عندما وصلتُ إلى حديقة جاراتي الصغيرات، رأيتُ الكبرى مقرفصة قرب مصباح زيتي، وكانت تمسك بيدها، وتضع فوق الشعلة، شيئاً ما يحترق، تنبعث منه رائحة فظيعة. اقتربتُ، فرأيتُ ما يجري: كانت تشوي فأراً وهو ما يزال معلّقاً من ساقه بالمصيدة الخشبية. كان الحيوان ما يزال حَيّاً، يتلوّى بطريقة مؤلمة. أمّا أنا، فكنتُ أشاهد هذا، ويجب الاعتراف بمتعة وافتتان، لم أكن لأشعر بهما في حالة كهذه قبل أشهر قليلة.

فتحت أمّي باب المطبخ، وبدأت في تأنيبنا نحن الاثنَيْن، أنا لأنني لم أكن "ذكياً بما يكفي حتّى لا أتفرّج على هذا"!

- ألا تخجلين من نفسكِ؟ (قالت للفتاة الصغيرة). اتركي هذا الفأر المسكين. قلتُ لكِ اتركي هذا الفأر!

- لا! (أجابتها الفتاة بتعنّت)، أفعل ما يحلو لي، أساساً هذا يُفعَل ببعض الأشخاص في أوروبا. سمعتُ ذلك في الراديو، وحتّى بابا يقول ...

- هذا ليس موضوعنا، (قالت أمّي)، لا يجب أن نؤذي بلا مبرّر. اقتلي هذا الحيوان فوراً بحجر حتّى لا يتعذّب أكثر.

- لا! ماما قالت لي أن لا أكترث لأيّ شيء تقولينه. قالت إنها الوحيدة التي يحقّ لها التّحكّم بي، وليس أنتِ.

- الفأر مات الآن (قلتُ أنا).

- هذا أفضل، (قالت أمّي)، ولكنكِ فاقدة للوعي تماماً! ألا تشعرين بمسؤولية حيال فعلتكِ؟

- لا يهمّني، (قالت الفتاة باندفاع). على رأي ماما، لستِ إلا ... بروتستانتية خالصة!

مثلما أصبح كل شيء مهما كان صغيراً، يعيدني إلى النقطة نفسها، ضربت كلمة أمّي وتراً مُوجِعاً بداخلي، كما لو أنها قيلت خصّيصاً لي: "ألا تشعرين بمسؤولية حيال فعلتكِ؟"

- ماما، (قلتُ لها بينما كانت تغلق الباب ورائي، وتأخذ قبّعتي)، الآنسة مارتال علمت من أحدهم أن ويلي هدّدني بالضرب، من المستحيل أن يكون قد أخبرها أيّ تلميذ، مَنْ إذنْ؟ أتمنّى أن لا تكوني أنتِ.

- لا... ولكنْ، أعترف أنني ذهبتُ لرؤية السّيّدة ألدريدج. وللغرابة، لم تكن تعلم بأيّ شيء.

- ماذا! فعلتِ ذلك! لم يكن من حقّكِ، هذا أمر لا يخصّكِ، لماذا تحشرين نفسكِ؟

- أيّ شيء يتعلّق بكَ يخصّني، جيف. ولا تتكلّمْ معي أبداً بمثل هذه الطريقة! أظنّ أنني فعلتُ الأفضل لكَ.

- آه، لقد فعلتِ الأفضل فعلاً! السّيّدة ألدريدج حذّرت بلا شكّ الآنسة مارتال، وهذه الأخيرة أخبرت الصّفّ كله، والآن بفضلكِ، لم يعد الجميع يعاملني فقط على أنني سارق، ولكنْ، جبان فوق ذلك. أتمنّى أن تكوني سعيدة!

- ولكنْ، ما بكَ جيف؟ لم أسمعكَ قطّ تتكلّم هكذا، أعرف جيّداً أنكَ تمرّ بظرف سيّئ، ولكن هذا ليس عذراً. تذكّر أيضاً أنني لستُ عدوّتكَ.

- بلى. عندما تذهبين لرؤية السّيّدة ألدريدج.

تكدّرت أمّي، ولم تردّ. شعرتُ بالوحدة، كما لم أشعر بها قطّ في حياتي. مع الكذب أُضيف الحذر الآن. يجب أن أحذر من بعد الآن من حُبّ المقرّبين منّي.

تركتُ باب غرفتي مفتوحاً، وبعد قليل، سمعتُ صوت أقدام تصعد الدرج. كان بوبي:

- خذ، انظرْ جيف، معلّمتنا قامت بزيارة عدّة كهوف في أثناء العطلة، وجلبت لنا هذه. اسمها "ستالاجميت". هذا حجر ينبت. ينبت وينمو داخل الكهوف، لن تصدّق، مثل العشب!

فتح يده، فظهر داخل كفّه حجر أصفر، يميل إلى البنّيّ، له شكل مكعّب ثلج غريب:

- أسمح لكَ بلَمْسه، لأنكَ أنتَ، جيف. ولكنْ، انتبه، إنها تتفتّت قليلاً.

بالفعل، فقد صُبغَت أصابع بوبي بلون الحجر. بدأتُ في الاهتمام، واقتربتُ منه. فجأة سيطر عليّ إحساس غريب:

- هيّا، ابتعد، لا يعنيني حجرك اللقيط هذا. في المستقبل، لا تأتِ أبداً إلى غرفتي، بدون أن تطلب الإذن، ولا تبدأ في البكاء، لأن ذلك يجعلكَ تبدو أبلهاً.

شدّ على قبضته بقوّة. حتّى خرج حجر الستالاجميت من بين أصابعه، كالزبدة.

عندما وصل إلى الدرج، بدأتُ أغنّي له الكلمات نفسها التي سمعتُها ساعة قبل الآن:

- سالوس بوبييوس! بيانتوس! (مع السلامة بوبي، إلى اللقاء).

راودني الندم فيما بعد، ما الذي كنتُ سأخسره لو استمعتُ إليه، دفعني ذلك إلى النزول والتّأسّف له، ولكن ردّ فعل أبي لم يتأخّر كالعادة:

- أمنعكَ من معاملة أخيكَ الصغير بمثل هذه الطريقة، ما الذي فعلهُ لكَ؟ لاشيء ..

- بلى، إنه يزعجني ..

- ولكنه فيما مضى لم يكن يزعجكَ. لا أفهم لماذا أصبحتَ سيّئاً معه. سوف تندم يوماً ما على هذا.

(١٤)

- هل أنتَ جاهز؟

كان هذا رونالد، الذي وشوشني هذه الكلمات في الصّفّ، قبل خروجنا بقليل، في اليوم الذي وعدني فيه ويلي بالضرب التأديبي.

- هل أنتَ جاهز؟

تمنّيتُ إيجاد طريقة لتفادي هذا الاحتكاك، ولكن كلّ فشل من ناحيتي كان سيمثّل نوعاً من الاعتراف. وأبي فوق ذلك لن يغفر لي أبداً جُبني. قرّرتُ الرّدّ إذنْ على استهزاء رونالد بي، عن طريق هزّ كتفيّ، مثل ضحية مستسلم. في الوقت نفسه، أبقيتُ إصبعَيّ مشبوكَيْن الواحد فوق الآخر، وكُلّي أمل أن يساعداني في تجاوز هذه المحنة.

- قلْ، (كرّر)، هل أنتَ مستعدّ لتكسير فمكَ؟ ويلي سيُصلح لكَ شَفَتكَ.

غير أن ويلي لم يبد متحمّساً، على العكس، شعرتُ أنه مستسلم هو الآخر. أحياناً كانت تلتقي نظراتنا مثل أيّ غريبَيْن يشعران أنهما يعرفان بعضهما دون أن يمكنهما تأكيد ذلك.

لم يرغب أحد بتفويت الشجار، ساحة المدرسة كانت أشبه بحلبة تعجّ بالتلاميذ الذين لم ينقصهم الصراخ.

- هيّا، ويلي، أعطِهِ ما يستحقّه، هذا الحقير الصغير!

- سارق! هيّا، أيّها الشَّفَة الكبيرة، تقدّمْ، لا تكُ خجولاً، تقدّمْ، أيّها السارق!

كنتُ أكرّر حجّتي الوحيدة:

- ليس عندكم أدلّة! لا أدلّة!

الفتيات يشاهدنَ ما يحدث باندهاش، قالت إحداهنّ وهي كانت واحدة من اللواتي وجدناهنّ داخل الخزانة بوخزات الذراع:

- لا أفهم، الصبيان يحبّون دائماً إيذاء غيرهم.

- أنا خائفة من هذا الشجار.

رغم ذلك لم تبرحا مكانهما.

لمحتُ، إذنْ، ويلي يقترب منّي، بأذنَيْه الكبيرتَيْن وخصلته الشقراء. كان يمشي ببطء. لا شكّ وأنه فكّر في البداية أن تهديده لي بالضرب كان سيجعلني أُعيد الطوابع. أنا متأكّد:

لولا أنه يشعر بالضغط، ولو لم ينتشر الأمر رغماً عنه، ويتردّد في المدرسة، بسبب الآنسة مارتال، لم يكن ليحصل أيّ شكل من أشكال "التصحيح".

بلطف، ودون إيذائي، أسقطني، وسمّرني على الأرض، تضاعفت الصرخات، صرخات، وليس تصفيقاً، ولكنها صرخات خيبة.

- أوه، إنه لا يدافع عن نفسه. يا له من ضعيف!

- لا يضرب، ليس حتّى مضحكاً!

لوهلة ظننتُ أن ويلي سيقول لي شيئاً. ولكنْ، بقي كلانا صامتاً. خُيّل لي أنني رأيتُ تضرّعاً في نظرته، توسّلاً للمغفرة. وربّما كان فقط انعكاساً لنظرتي.

ذراعاه تُكبّلانني، وتُلصقانني بالأرض، كنتُ أشعر بضغط يَدَيْه على معصمَيّ، ضغط قوي، ولكنْ، لطيف، كما لو أنه يحميني، ثمّ نظراته كانت تسبر أغوار عينَيّ، كما لو أنها تقول: "لماذا نحن هنا، يا جيف؟"

الصراخ لا يهدأ:

- ماذا تنتظر، يا ويلي؟ اضربْهُ، اضربْهُ ضربة جيّدة!

- أنا سأذهب، (قال آخر)، إننا نضيّع وقتنا.

بعضهم بدأ بالانسحاب فعلاً. ويلي لا يتحرّك، يمسكني دائماً، قلتُ له بصوت منخفض:

- ساعدني، يا ويلي. أنتَ وحدكَ مَنْ يقدر على فعل ذلك. إنكَ ترى جيِّداً أيّ حياة جعلني الجميع أحياها. أنتَ وحدكَ ...

كان يفتح يَدَيْه اللَّتَيْن تقبضان بقوّة على معصمَيّ، عندما حطّت يد على كتفه، وانتشلته ليقف. إنها أمّه، السّيّدة ألدريدج التي كانت تبكي، ثمّ انحنت عليّ، وساعدتني على الوقوف أنا أيضاً:

- الآن، عُدْ إلى بيتكَ، صغيري جيف، (قالت).

ثمّ التفتت إلى ويلي، وغمغمت ببساطة:

- ويلي، تعال.

وأخذتْهُ.

التزم الجميع الصمت، التلاميذ احترموا وجود الأمّ، ولكنْ، ما إن ابتعدت هي وابنها، ولم يعد بإمكانهما سماع شيء، بدؤوا يسخرون منّي، ويرشقونني بتعليقاتهم:

- كان يجب أن تُعلم أمّه، ها؟

- آه، هذا لا يفاجئني أبداً، أنتَ جبان لهذه الدرجة.

فتاة تردّ على فتاة أخرى:

- ولكنْ، لا، ليس هذا ما دفعها لأن تأتي. إنها لا تريد أن تتوسّخ يدا ابنها بلَمْس هذه القذارة.

- نعم، أفهم!

- تستطيع أن تكون فخوراً، لقد أنقذَتكَ، أيّها الشَّفَة الكبيرة، أليس كذلك؟ أنقذَتكَ، أيّها الجبان الصغير!

- هي أنقذتْهُ من ويلي ربمّا، ولكنْ، نحن هنا ...

- بالطبع، بما أن ويلي لم يفعل له شيئاً، سنتولّى نحن أمره.

- اسمعوا، تذكّرتُ أنه مدين لنا بأن ننزع ثيابه الداخلية منذ المرّة الماضية.

- الجبان الصغير، هرب في المرّة الماضية.

مرّة أخرى، لم أجد أمامي سوى الهرب. كان ورائي مجموعة كبيرة من الأولاد، وبعض البنات. هذه المرّة وصلتُ إلى البيت لاهثاً، بالكاد، كان عندي الوقت لفَتْح الباب، وصفقه ورائي، ومن النافذة، رأيتُهم يتحدّثون فيما بينهم، ثمّ رموا بعض كرات الثلج على المنزل، وبعد ذلك ذهبوا.

في تلك الليلة، اقترحتُ أن أُغيِّر المدرسة، وهي فكرة لمَّحتُ لها سابقاً، ولكنْ، هذه المرّة تكلّمتُ جادّاً. وكعُذر مزعوم، أضفتُ أنني لم أستطع الدراسة جيِّداً، وأن أعدادي سيّئة. رغم ذلك اعترض أبي شكلياً:

- هذا ليس حلاً. اسمه فرار. لو ستبدأ بالفرار منذ الآن من صعوبات الحياة بدل مواجهتها، لن تستحقّ شيئاً كبيراً فيما بعد. دافعْ عن نفسكَ، إذنْ! حتّى إن خسرتَ في البداية، لا تتنازلْ، لا تهربْ، وسوف ترى خلال أسابيع، سينتهي ذلك كله ... ولكنْ، الآن، يا جيف، لا تغضبْ منّي، ولكني أرغب أن تقسمَ لي أنكَ لم تأخذها ... وأن لا علاقة لكَ بموضوع السرقة، لا من قريب، ولا من بعيد.

- ولكنني أقسمتُ سابقاً لماما ..

- أَقسِمْ لي أنا أيضاً من فضلكَ.

- حسنا، أُقسم لكَ. (قلتُ بسأم).

تقزّزتُ من نفسي لمُجرّد اضطراري مرّة أخرى للكذب. ثمّ قلتُ بغضب:

- أنتَ تشكّ بي!

- ولكنْ، لا، (راحت أمّي تشرح قادمة من المطبخ، وهي تنشّف يَدَيْها)،

أبوكَ يريد ببساطة أن يطمئنّ، مثلي. لقد علّمناكَ أن تكون أميناً، وقد كنتَ كذلك دائماً. حتّى إنني لا أستطيع فهم كيف استطاع آخرون تصديق تلك القصّة. ولد مثلكَ يسرق أعزّ صديق لديه، بعد أن يقدّم له هدية؟ يا للهراء!

- لا تستغربوا خلال أيّام أن يأتي ويلي، ويتظاهر أن بعض الطوابع له، كما لو أنه لا يمكن وجود نسخَتَيْن من الطّابَع نفسه!

- فعلاً، (قالت أمّي)، السّيّدة ألدريدج حدّثتني عن بعض طوابع الموزمبيق، التي تحمل صوراً لحيوانات غريبة، كالتي أريتَني إيّاها تلك الليلة، يا جيف. تخيّلْ أن يراها ويلي!

- لن يضع قَدَمَيْه هنا على الإطلاق! (قال أبي بوثوق).

توقّفت أمّي عن الكلام عندما نظرت إليّ، وبقلق شديد قالت:

- هل ترتجف؟ أوه، انظر أيّ أذى ألحقوا به ...

- أريد أن ينتهيَ هذا، ماما أرجوكِ، لم أعد أقدر، ولكنْ، ما الذي عليّ فعله؟

- لا تبكِ، جيف، هذا لن يفيدَ بشيء، ماذا ستفعل؟ حسناً، هل تصلّي جيّداً كل ليلة قبل النوم؟

الصلاة؟ لا أجرؤ أبداً. رغم أنني أجبتُ بنعم. الكذب مرّة أخرى.

- أنا أيضاً، (قال بوبي)، الذي جاء راكضاً من غرفته.

- أصلّي من أجلكَ كل ليلة، جيف، (قالت ماما)، ولكنْ، أنتَ أيضاً اطلبْ من الرّبّ أن يساعدكَ للخروج من هذه المِحنة. تذكّرْ حبّة الخردل.

وأشارت لتلك الموضوعة داخل كرة الكريستال فوق الطاولة الصغيرة ذات الساق الواحدة.

مرّة أخرى، راحت تتلو عن ظهر قلب الآية المنقوشة على المحيط الخشبي لكرة الكريستال، ثمّ أضافت:

- إن تمتلك إيماناً صلباً كحبّة خردل، فإنكَ قادر على كل شيء.

- قولي لي، ماما، (تدخّل بوبي)، هل تستطيعين الطيران، إذنْ؟

- أنتَ وجيف مَنْ ستطيران الآن إلى السرير، (قال أبي وهو يضحك)، حان الوقت.

في اللحظة التي كنتُ أهمّ فيها بالصعود، أتت أمّي، وقالت:

- ملامح وجهك مُتعَبة. لا تكترثْ، كل شيء سيكون على ما يرام، سوف آتي بعد قليل لأجلس قربكَ حتّى تنام.

- لا، ماما، أريد أن أكون وحيداً، (استأنفتُ أنا كما لو أنني كنتُ أمتلك الخيار).

داخل غرفتي، تذكّرتُ حبّة الخردل، كنتُ محتاجاً لأن آمل، في هذه اللحظة التي كنتُ مستعدّاً فيها لأن أتعلّق بأيّ شيء. أجبرتُ نفسي حتّى الغد أن أقتنع أن كل هذا ما هو إلا حلم سيِّئ. وأنه لا يمتّ للواقع بصلة، وحتّى أحافظ على ذلك الأمل رفضتُ أن أفكّر أو أتحقّق. مرّات كثيرة، كنتُ أقترب من المنضدة، أفتحها، أتأمّل علبة "الوايتفالدز سامبلر" ولكنني لا أجرؤ على فتح القاعدة المضاعفة.

في النهاية، لم أستطع المقاومة، ولكنْ، للأسف، اكتشفتُ أننا لا نستطيع محو فعلة مشينة، كما لا نستطيع الطيران، ولا قلب شَفَة أرنبية إلى شَفَة طبيعية.

(١٥)

- لم تذهب لرؤية السّيّد "ساندت" منذ فترة، (قالت أمّي).

وقدّمت لي بطاقة، أرسلها العجوز. كتب لي فيها أجمل الأُمنيّات بمناسبة عيد ميلادي القادم.

كنتُ بالفعل قد نسيتُ قليلاً السّيّد "ساندت". ما الذي فعله، يا تُرى، يوماً بعد يوم خلال عزلته؟ رغبتُ في الذهاب إليه، لأطلب بعض الراحة. إنه الشخص الوحيد من معارفي الذي لم يسمع بما يجري معي، وبالتالي لن أجد عنده ستارة الأعماق وسوء الظّنّ الذي بتُّ أجده عند الجميع.

عندما وصلتُ، جلس إلى طاولته الصغيرة القابلة للطَّيِّ، وكما كل المرّات، جلسنا لنتفرّج على ألبوماته، وعلى قِطَعِهِ النقدية. ورغم رؤية الطوابع، نجحتُ طيلة نصف ساعة في نسيان كل شيء، وفي إيجاد نوع من السلام. لكن ذلك لم يدم طويلاً، لأننا لا ننسى عادة ما نودّ حقّاً نسيانه. بسرعة كبيرة، أيّ حدث عرضيّ يتولّى مهمّة تذكيرنا. بعد لحظة، قال السّيّد "ساندت":

- صديقكَ رونالد، أحد الوَلَدَيْن اللَّذَيْن جئتَ بهما معكَ لزيارتي، حسناً، لقد مرّ بي منذ أيّام، وحسب قوله، جاء ليضعني في الصورة، وحكى لي قصّة حول سرقة ما. سألني أيضاً إن كنتَ قد اقترحتَ عليّ

بعض الطوابع للبيع. وأراد إعطائي بعض الوصف لتلك الطوابع، ولكنني تملّصتُ منه سريعاً، لا أُحبّ "المخبرين".

سارع السّيّد "ساندت" ليُضيف:

- حتّى وإن لم يكذبوا كرونالد. إنه كاذب، وهذا واضح. ولكنْ، بالرغم من ذلك، كان عليك أن لا تمتنع عن التفتيش، مثله.

- لم أستطع، هذا يقززني. لا يجوز فعل ذلك بين الأصدقاء... آه، لو باستطاعتي إرجاع الزمن إلى الوراء، لم أكن لأتردّد في السماح لهم بتفتيشي طبعاً.

- أعرف، أعرف جيِّداً.

لازمتُ الصمت لوقت طويل عندما كان السّيّد "ساندت" يمرّر لي عدّة قطع نقدية قديمة ومختلفة. ثمّ ابتعد دون أن يقول كلمة، وعاد حاملاً علبة صغيرة، مستديرة ومسطّحة، ومصنوعة من الجلد الأسود.

كانت مبطّنة بالداخل بطبقة من المخمل الأخضر.

فقط القِطَع الجميلة والمميّزة من مجموعته ما كانت تستحقّ شرف علبة خاصّة، وهذه القطعة المستريحة على المخمل كانت واحدة من الأجمل على الإطلاق، صغيرة جدّاً تبدو ضائعة داخل هذا المكان المخصّص لميدالية كبيرة.

- سوف أحكي لك حكاية صغيرة حول هذه القطعة، بدأ في الكلام بنبرة متعمّدة، مُسلِّطاً عينَيْه الزرقاوَيْن الخارقَتَيْن عليّ:

- ليست من الذهب. ولكنْ، بإمكان الشخص غير الخبير أن ينخدع

بها، ويظنّها من ذهب، هذا ما قلتُهُ لنفسي، عندما كنتُ تقريباً في سنّكَ نفسه، كنتُ أدرس في معهد لوباك في ألمانيا. وكان عندي زميل، مثلي، مهتمّ بعض الشيء بعلم العملات. في أحد الأيّام، أريتُها له، وقلتُ له إنها ذهبية. ولأنها أعجبتْهُ كثيراً، بعتُها له بثمن غال جدّاً ...

- وماذا حصل بعد ذلك؟

- بعد ذلك، عدتُ إلى المنزل، حاملاً تلك النقود في جيبي، وفي رأسي كل أنواع المشاريع التي كنتُ أخطّط لتنفيذها، ولكنْ، رغم كل شيء، كنتُ أحمل كثيراً من الشكوك، شكوك تتعلّق بي، طيلة أسبوع كامل ...

توقّف السّيّد "ساندت" عن الكلام مرّات عديدة، كان خلالها يرفع عينَيْه إلى وجهي، عابثاً في الوقت نفسه بقطعته الصغيرة فوق السطح المخملي الشاسع. نفد صبري، وطلبتُ منه بإصرار أن يُكمِلَ قصّته، أكمل، إذنْ:

- طيلة أسبوع كامل في المدرسة، كنتُ أرى زميلي. كانت نظرته إليّ كل يوم، المليئة بالثقة والجهل بخداعي له، تُربِكُني كثيراً. لم أستطع صرف فلس واحد من المال الذي أخذتُهُ منه. وفي النهاية، قرّرتُ إعادة شراء القطعة بأيّ ثمن. كنتُ خائفاً من شيء واحد أن يرفضَ زميلي بيعها لي. وبالفعل تمسّك بها كثيراً، خصوصاً وأنه استمرّ بالتصديق أن لها قيمة كبيرة. كان عليّ التفاوض معه، إذنْ، ووعدتُهُ أن بإمكانه الربح من عملية إعادة البيع هذه. كل مصروفي لأيّام الآحاد أصبح يذهب إليه، وكنتُ أضحّي بأن ألزم البيت، ولا أخرج حتّى أعدتُ شراءها، تلك القطعة أصبحت أغلى ممّا كانت عليه عندما زعمتُ أنها من الذهب، ولكنْ، كان عليّ فعل ذلك، فقد كان نومي ما أعدتُ شراءه.

لم يتوقّف ضيقي في أثناء سماع هذه القصّة عن التعاظم، شككتُ أنه يقصدني بطريقة غير مباشرة، ولكنني عدتُ وقلتُ لنفسي إن السّيّد "ساندت" لن يُشوِّه سمعته، ويخترع هذه القصّة فجأة.

أردتُ الأخذ بزمام المبادرة، والقيام بنفسي بربط قصّته بقصّة الطوابع، ولكنّ لُطف السّيّد ساندت حوّلني إلى شخص أخرق:

- مثل الشخص الذي أخذ طوابع ويلي، قلتُ، هو أيضاً لن ينعمَ بنوم هانئ، أنا آسف من أجله.

بدا لي أن نبرة صوتي خرجت خاطئة. السّيّد "ساندت" استغرق وقتاً طويلاً ليردّ، يغلق ويفتح مرّات عديدة العلبة الصغيرة المبطّنة بالمخمل الأخضر، في حين كنتُ أنا أعبث بالقطعة النقدية بين أصابعي.

- ... أنا أيضاً أُشفق عليه، غمغم السّيّد "ساندت" أخيراً، ولكنْ، لو أن هذا الشخص عانى ممّا عانيتُهُ في تلك الأيّام، ولو حَرَمَتْهُ فِعْلَتُهُ من النوم حقّاً، فأعتقد أن بإمكانه إصلاح الأمر. لم يتأخّر الوقت كثيراً، يستطيع إرسالَ هذه الطوابع عن طريق البريد، كأنها من مجهول، مثلاً.

- ولكنْ، ماذا لو أنه أضاع أجملها؟

جملتي هذه أدانتْني، ولكنْ، منذ كلمات السّيّد "ساندت" الأولى حول زيارة رونالد، شعرتُ أنه خمّن الحقيقة، وبالتالي، فكل محاولة للكتمان معه ستكون بلا فائدة. كانت نظرته مليئة بالحكمة وبالتّفهّم للضعف البشريّ، والذي لم يخطر لي معه أن أدّعي الغضب أو أراوغ، أو ألعب دور الساخط، كما كنتُ أفعل مع والدَيّ. لم أجتهد كثيراً إذنْ في إخفاء حقيقتي، بل

كنتُ ممتنّاً له كثيراً على هذه الفرصة التي منحني إيّاها للاستراحة قليلاً من ذلك الضغط المتواصل، ولأكون، ولو لبعض الوقت، على طبيعتي دون الحاجة لأن أكون متيقّظاً وحَذِراً. منذ قلتُ تلك الجملة التي قلتُها بلا تفكير، لم أجرؤ على النظر في عينَيْه، ركّزتُ نظري على القطعة "الذهبية" التي ما زالت بين أصابعي، ولكنني كنتُ أشعر بنظرته فوقي.

وقف السّيّد "ساندت" فجأة، وقال:

- سأصنع لكَ عصير برتقال، ابقَ هنا، وتفرّج على هذه القِطَع، سأعود بسرعة.

أمامي على الطاولة القابلة للطّيّ والمبقّعة بآثار القهوة والحبر، تتوزّع عدّة قِطَع نقدية ذهبية فاتنة الجمال، تعود لسنوات قديمة: خوذات من الريش، (كدريجة)(*) تجرّ خلفها عربات عتيقة، لويس الرابع عشر ناشراً شَعْره الصّناعيّ الكثيف والطويل، ماري تيريز يتقدّمها صدرها.

سمعتُ من الطرف الآخر في الشّقّة وداخل مطبخ السّيّد "ساندت" الصغير، ضجيجاً لانهائياً للكؤوس والملاعق. يتعمّد التّأخّر بإفراط، من الواضح أنه يحاول استعادة ثقته بي بعدما اكتشف سرّي.

أخيراً أحضر عصير البرتقال، مع بعض المرطّبات الذابلة بعض الشيء.

خلال ما تبقّى من زيارتي، لم نتحدّث مطلقاً عن الحادثة، ولا عمّا يتوجّب على "الشخص" الذي أخذ طوابع ويلي فعله. وللمرّة الأولى منذ عرفتُ السّيّد "ساندت" شدّد عليّ بمثل تلك الطريقة قبل مغادرتي:

---

*) الكدريجة: مركبة بدولابيْن، تجرّها أربعة جياد.

- لا أراكَ كما يجب. عليكَ أن تزورني أكثر. أعرف أن المسافة بعيدة، وعليكَ عبور كل المدينة، ولكنْ، لا يهمّ، عُدْ بسرعة، ولا تتركْني لوِحدتي، حتّى لو لم أكن في نظرك أكثر من شيء قديم، تماماً مثل هذه القِطَع التي أجمعها.

هل أعتقد أنني بمُجرّد أن واربتُ له باب قلبي، ستُدفَن صداقتنا؟

قبل ذهابي، أكّد مرّة أخرى، بلُكْنَتِه الألمانية:

- إذنْ، هل تعدني؟ ستأتي قريباً؟ أنا لم أُرِكَ بعد "دوكاتي"(*) التي تعود إلى البندقية، ولا ميدالية "شارل كوينت"، والتي تعود لعام ١٥٢١، وأشياء أخرى كثيرة! لن تستطيع رؤية كل شيء، وأنت تباعد كثيراً هكذا بين زياراتكَ ... قفْ مستقيماً، ولا تنسَ ممارسة التمارين الرياضية. لو كنتُ أباكَ ... حسناً لو كان لي أبناء، أولاد مثلكَ (السّيّد ساندت كان أرمل بلا أبناء)، كنتُ سأحرص على أن يمارسوا الرياضة. كنتُ سآخذهم معي مثلاً إلى التّزلّج.

وأنا أهمّ بالمغادرة، أضاف:

- اطمئن، كل شيء سيصبح على ما يرام فيما يتعلّق بقصّة السرقة هذه. هذا الفتى سيجدها قريباً، اسمعْ، أتساءل هل ذهب إلى مكتب الأشياء الضائعة؟ إن لم يفعل، فعليه أن يسأل هناك، مَنْ يدري؟

هل كان يريد أن يقترح عليّ حلولاً؟ عموماً لا أرى أيّ حلّ منها ممكناً.

---

*) الدوكات: هي عملة تجارية ذهبية، كانت تُستعمل في أوروبا منذ أواخر القرون الوسطى حتّى بداية القرن العشرين. حصلتْ على قبول دولي واسع، حيث كانت عملة معتمَدَة في كثير من البلدان الإسلامية، تُسمّى أيضاً البندقي أو الذهب البندقي أو الدينار الأفرنتي، كما كان يُعرَف في العالم الإسلامي، والدوقت أو الدوكات في أوروبا.

بطريقة أو بأخرى، لإرجاع الطوابع، يجب إرجاعها كلها، وخصوصاً الجميلة منها. وهذه الأخيرة قد مرّت بمغسلة أمّي. بالنسبة إلى الطوابع الأخرى التي لا قيمة لها، فلا ضير من ضياعها، حتّى الذي سيجدها لن يُكلّف نفسه عناء أخذها لمكتب الأشياء الضائعة. هذا فضلاً عن أن هنالك إمكانية كبيرة جدّاً أن يخمّن ويلي في هذه الحالة أو في أسوأ الحالات رونالد كل الحقيقة . ارتعدتُ لمُجرّد تخيُّل رونالد وهو يستغلّ الفرصة. سمعتُ منذ الآن سخرياته: " إذنْ، اعترفتَ أخيراً؟... أيّ كاذب أنتَ! أُندهش كلّما تذكّرتُ كيف كنتَ تمثّل أمامنا هذه المسرحية طيلة أسابيع! والطوابع الأجمل، ها؟ الطَّابَع الشَّفَّاف؟ ماذا فعلتَ به؟ أراهن أنكَ بعتَهُ!"

لا .. التفكير في إصلاح الأمر يشكّل خطراً، لأنه يهدّد بأن تنقلب المحاولة ضدّي ...

- هذا وعد؟ كرّر السّيّد "ساندت"، ستعود قريباً؟

(١٦)

اكتشفتُ، أو على الأقلّ، ظننتُ أني اكتشفتُ أن التلاميذ بدؤوا النسيان بمرور الوقت. أرجَعَ لي هذا قليلاً من الأمل. التلميحات بدا لي أنها تتناقص أسبوعاً إثر أسبوع، وتمسّكتُ بفكرة أنه في أحد الأيّام سوف يتوقّف الحديث في الأمر نهائياً. كنتُ أقتنع شيئاً فشيئاً بأن: التظاهر كان أفضل طريقة للنجاة.

رغم ذلك، استجدّ حدث، رماني من جديد وسط الشكوك. مدير المدرسة يدخل مستعجلاً إلى الصّفّ، ويسأل:

- ويليام ألدريدج حاضر؟ يجب أن يعود فوراً إلى منزله.

كل الصّفّ كان يتابعه بينما يلبس معطفه، ويغادر القاعة، البعض شعر بالغَيْرة من هذه العطلة غير المنتظَرَة، أمّا البعض الآخر، فقد اشتمّ رائحة حدث مُحزِن.

أخبرتنا الآنسة مارتال بعد قليل أن ويلي سيتغيّب عن المدرسة أسبوعاً على الأقلّ، أخوه، الطّيّار، مات. ليس في الحرب، ولكنْ، بطريقة غبية، في حادث فوق ميناء جوّيّ بكاليفورنيا، عبره خصيصاً، لأنه حصل على إذن لزيارة أمّه وأخيه. الآنسة مارتال لم تُفوِّت الفرصة، لتستخلص درساً أخلاقياً من هذه الوضعية:

- أرغب أن تحاولوا جميعاً وضع أنفسكم في مكان ويلي، وفي مكان أمّه المسكينة، ليرفع كل مَنْ لديه قريب في الحرب يده اليمنى.

بدأت تعدّ الأيدي المرفوعة:

- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة ... أربعة من ضمن اثنَيْن وأربعين، هذا العدد ليس حتّى عشرة بالمائة. إذنْ، أنا أتوجّه بالكلام على وجه الخصوص إلى الذين لا يعرفون معنى أن يكون لديهم أشخاص غالون عليه في خطر، أشخاص يُضحّون بحياتهم من أجل الوطن. دقيقتا صمت الآن على روح .. على روح .. (استعانت بورقة أمامها)، جورج ألدريدج. دقيقتا صمت، أريد خلالهما أن تفكّروا فيه، وفي الآلاف غيره الذين يُضحّون أيضاً، ويومياً بحياتهم ...

واقفة على رأس الصّفّ، طأطأت رأسها، لتعطينا المثال، وأغمضت عينَيْها، ولكنْ، ليس بشكل تامّ، أن تراقب التلاميذ والساعة في نفس الوقت (تراقب خشوع التلاميذ وتراقب الساعة حتى لا يتم تجاوز الدقيقتين). قطع صمتَ القاعة بعضُ السعال المتقطّع والمتفرّق، ولكنْ، رغم ذلك، ظلّ الاحترام والتقدير يسودان الجوّ. همست فتاة ببضع كلمات للفتاة التي بجانبها.

- أششش! (قالت الآنسة مارتال وهي ترفع جفنها كَسِحْلِيَّة).

عند انتهاء الدقيقَتَيْن، استأنفتْ:

- حسناً، أريد الآن متطوّعين لجمع التّبرّعات. كل واحد منكم مُطالَب بالمساهمة بمبلغ في حدود خمسة عشر سنتاً.

لم يتطوّع أحد لجمع التّبرّعات. اضطُرّت لاختيار ولد وفتاة، طافا الصّفّ

بسلَّتَيْن صغيرتَيْن من السهل تخمين أنهما مجعولتان لجمع التّبرّعات. أعرف مُسبَّقاً كل ما سيجري لاحقاً: العملية نفسها تتكرّر دائماً عندما يموت قريب لأحد التلاميذ. هذه المرّة تغيّرت المقدّمة فقط، وذلك لتورّط الوطنية في موت الألدريدج الشّابّ.

- والآن، نحتاج لمتطوّعَيْن آخرَيْن، ليذهبا لاختيار باقة الورود.

مرّة أخرى، لم يرفع أحد يده.

- بإمكانكم إظهار قليل من الرغبة في المساعدة، (قالت الآنسة مارتال التي اضطرّت للمرّة الثانية أن تختار بنفسها متطوّعَيْن). آه، صحيح بالفعل، أنتما مَنْ قاما بهذا المرّة الماضية. أريد أن يأخذ كلّ دوره.

بدون تفكير، استقرّ نظرها عليّ. ولم تكد تنطق اسمي حتّى انتبهت لخطئها، وعلت وجهها علاماتُ الجزع، ولكنْ، كان ذلك متأخراً جدّاً، فالصّفّ انخرط في نوبة من الضحك الممتزج بصرخات الاحتجاج:

- هو؟ ماذا؟

- سارق ويلي سيشتري له الورود؟

- سكوت، سكوت! (كرّرت الآنسة مارتال بغضب وحزم)، هل هذه طريقة مناسبة تتصرّفون بها في مثل هذه الظروف؟ هذا وقت للحزن وللتّأمّل. إذنْ، مهما كانت أسبابكم، أنا أرجوكم أن تحترموا ذكرى هذا الطّيّار المسكين. ألا تخجلون من أنفسكم؟

ثمّ راحت تبحث عن حلّ للوضع:

- حسناً، بعد التفكير، أظنّ أن اختيار الورود من اختصاص الفتيات، جان وأنا سنذهب لشرائها معاً، انتهى.

وبما أنها سمعت تنهّدات الارتياح، وخشيت حدوث موقف آخر، استعجلت لتقول وهي تتوجّه إلى خزانتها بحثاً عن ظرف أبيض:

- هذه بطاقة التعزية الخاصّة بكامل الصّفّ. (تحتفظ دائماً بواحدة على سبيل الاحتياط)، ثمن البطاقة سيتمّ اقتطاعه من المال المخصّص لشراء الورود. وإن بقي شيء، سنضعه في حصّالتنا، من أجل المرّة القادمة. اشتريتُ هذه البطاقة كبيرة بما يكفي. رغم ذلك، إذا كنتم تريدون جميعاً التوقيع، فلا تكتبوا بخطٍّ كبير، واكتبوا بخطٍّ واضح، تذكّروا ما تعلّمتُمُوه في دروس الخطّ، ولكنْ، بالأخصّ، لا تُبقّعوا الورق بالحبر! في الوقت الذي ستُمرِّرون فيه البطاقة فيما بينكم، أنجزوا تمارين الخطّ هذه، التي سأكتبها لكم، قالت هذا بينما تتّجه إلى السّبّورة السوداء.

تجاوزت البطاقة الضخمة ببطء الطاولة الأولى، ثمّ الثانية، عندما وصلت إلى الثالثة كانت قريبة جدّاً منّي، كنتُ أجلس منتظراً وقلقاً في الطاولة الرابعة. على البطاقة رسم لزجاج بألوان الباستال الفاتحة والضبابية، تتخلّلها بعض شعاعات نور، وفي أسفلها عبارة تعزية تقليدية بأحرف قوطية(*) كبيرة.

كان عذابا كبيراً رؤية البطاقة وهي تنتقل من يد إلى أخرى، كأن ليس لذلك نهاية ورؤيتها وهي تقترب منّي شيئاً فشيئاً.

"بالأحرف الكبيرة R

*) الخطّ القوطيّ: شكل من أشكال كتابة الحروف اللاتينية ظهرت في القرون الوسطى.

بالأحرف الصغيرة r

يموء، فراء."

كنتُ عاجزاً عن التركيز في تمرين الخطّ. تمنّيتُ أن يحدث شيء يُخلِّصني، أن تسقط محبرة على البطاقة، أيّ شيء! مدّت الفتاة التي أمامي لي يدها بالبطاقة دون تمهيد، وبحركة آلية، أملتُ أن ينسوني، أن تمرّ بي البطاقة دون أن تلمع. كنتُ أتنهّد عندما سمعتُ جاري الضخم ذو الشَّعْر الأحمر، يقول دون أن يفلتَ الفرصة:

- هل تجرؤ؟

بقيتُ مرتبكاً وضائعاً، هل يجب أن أُوقّع أو لا أُوقّع؟ لا أعرف. ثمّ فكّرتُ في ويلي، هل أُوقّع على هذه البطاقة ووصول هدية أخيه غير المنتظَرة كانت ما منحني الفرصة لسرقة الطوابع؟ مرَّرتُ إذنْ البطاقة للولد الأحمر نفسه، دون وضع اسمي، استغلّ ذلك، ليُوَشْوِشَ الآخرين ساخراً:

- لم يجرؤ.

لا، لم أجرؤ. وأنا فخور جدًّاً بذلك، فقد استطعتُ أخيراً أن أحترمَ نفسي قليلاً، وهو أمر لم يحدث معي منذ فترة. بعد الكثير من الكذب، منحني هذا التّصرّف اللائق شيئاً من الارتياح، ولكنْ، بشكل نسبي، ذلك لأن وعيي بوضعية ويلي كانت تُثقلني. الأذى الذي كنتُ سبباً فيه أصبح تافهاً الآن، إذا ما وُضع في مقارنة مع خساراته، سابقاً والده، والآن أخوه. ولكني كنتُ متقزّزاً من فكرة أني، بطريقة أو بأخرى، تسبّبتُ له بشيء من الألم من جهتي. وفي ذلك الوقت الذي كنتُ مقرّراً فيه عدم الاعتراف

أبداً جاء هذا الحدث، ليضعَني من جديد داخل التّردّد. ألن يُؤلِم ذلك ويلي؟ سألتُ نفسي، لو اعترفتُ له وحده، وطلبتُ منه برجاء وصِدْق أن يسامحني؟

ثمّة الكثير من العوائق، أوّلاً لا يجب أن أُربكه في فترة الحِدَاد هذه، طبعاً. وثانياً هل أستطيع إرجاع شيء لصاحبه، وقد أتلفتُ جزءاً كبيراً منه؟ أم أُريه الطوابع التالفة؟ لن يمكنني إقناع أحدٍ، سوف يظنّون أني أخدعهم، وهكذا سوف أضع نفسي في موقف أسوأ.

مخاوف أخرى أيضاً أوقفتْني: غضب أبي، الحزن الذي سأُسبّبه لأمّي، طردي من المدرسة ...

ثمّ ولأكُ صريحاً، أنا لا أرغب في إعادة هذه الطوابع. كانت كل ما تبقّى لي من "الرجل فوق الجبل".

ماذا أفعل إذنْ؟ لا شيء، عدا الانتظار، وفي كل يوم مزيد من الملح على الجرح. الأمل .. وهل من حقي أن آمل؟

أنظر بلا توقّف إلى مكان ويلي الفارغ، المرّة الأخيرة التي تأمّلتُ فيها طاولته الشاغرة كانت قبل عيد الميلاد، في ذلك الوقت كانت علاقتنا مختلفة عمّا هي عليه اليوم.

أن أدعو ويلي إلى حفلة عيد ميلادي الرابع عشر، كان أمراً غير قابل للطرح. هذا الميلاد يوم ١٧ فيفري (شباط)، صادف يوم عطلة، يوم سبت، ووجدتني فاقداً للحماس. لوقت قصير، احتجتُ لأعرف عدد سنواتي بالضبط، أن أعدّ الشموع التي غرستها أمّي فوق الكعكة التي جلبَتها بعد

العشاء، ووضعَتها بفخر المنتصر فوق الطاولة. كل جهودي لأبدو سعيداً، ولأشكرها على جهدها، باءت بالفشل، ولم تستطع أن تغشّها. نظرت إليّ باهتمام، وقالت:

- تبدو لي أقلّ سعادة هذا العام. هل هذا بسبب الزمن؟ هل لأنكَ كبرتَ، ولم تعد طفلاً؟

لم أعد طفلاً وأكثر، فكّرتُ بمرارة. وشعرتُ بنوع من الحنين إلى عيد ميلادي الثالث عشر، الذي شكّل منعرجاً نحو المستقبل، فقد فرّقني الكذب الآن عن طفولتي.

- ولكنْ، لن تنسى أن تقول أُمنيّتكَ أيضاً! (قال أبي متعجّباً).

- أوه نعم، نعم. تمنَّ أُمنيَّتكَ، تمنَّ أُمنيَّتكَ! (صرخ بوبي).

- هل تحقّقت أُمنيّة السنة الماضية؟ (سألت أمّي).

- ليس بعد ... (قلتُ أنا بضيق، لأن أُمنيّة السنة الماضية كانت أن يصبح لي أصدقاء).

- لم تتحقّق، ولو قليلاً؟ (أصرَّ بوبي).

- ربمّا قليلاً، (غمغمتُ أنا).

- لا ضير! (استأنف هو بحماس). سوف تتحقّق يوماً ما، سترى. قبل أن تصبح كبيراً جدّاً مثل بابا!

جاء وقت فتح الهدايا. أهداني أبي كتاباً عن الآثار: عجائب العالم القديمة. ومن أمّي قميص بجيبَيْن أماميَّيْن كبيرَيْن، قدّمتْه لي وهي تقول:

- اشتريتُهُ عمداً بجيبَيْن اثنَيْن عوضاً عن واحد. هذا مناسب أكثر، جيوبكَ مَحشوّة على الدوام بأشياء كثيرة، وسأكرّر لكَ: عندما تعطيني شيئاً لأغسلَه، لا تنسَ أن تتفقد جيوبه جيِّداً.

أمّا بوبي، فقد أهداني ظرفاً، يحتوي على كثير من الطوابع الشرقية التي تحمل صوراً: بوذا، سفينة شراعية صينية، وطَابَعَيْن "باغود".

- أترى؟ إنهم أجمل بكثير من الطوابع "الباغود" التي أعطاها لكَ ويلي. أليس كذلك؟ قلْ جيف، هيّا قلْ، (أصرّ بوبي).

(١٧)

السبت والأحد، يومان بلا دراسة، أقوم خلالهما دوماً بجولات طويلة عبر المدينة، وحيداً. أستقلّ أحياناً التّرام، وأحياناً أستقلّ درّاجتي الهوائية، وفي هذه الحالة الأخيرة، كنتُ أحاول دائماً البحث عن طريقة للمرور بالقرب من بيت ويلي، ولكنني لا أقترب كثيراً بالطبع. عندما كنتُ أرى ستائر غرفة السّيّدة "ألدريدج" مرفوعة، أتذكّر أنها فقدت أناقتها السابقة، ولم تعد تهتمّ كثيراً بمظهرها، كما كانت تفعل في السابق قبل موت ابنها، هذا بالإضافة إلى أنها خسرت عملها.

كنتُ أمرّ أيضاً، وبشكل مستمرّ، على المنحدر، حيث لعبنا "الرجل فوق الجبل". هذا المكان الذي أتجنّبه أيّام الدراسة، لأنه يكون ممتلئاً بالتلاميذ بينما يجذبني أيّام السبت والأحد عندما يكون خالياً.

تكون المغازات مقفلة يوم الأحد، فلا يتبقّى لي إلا يوم السبت للذهاب إليها، لا أشتري أيّ شيء من تاجر الطوابع، رغم ذلك أعود إلى محلّه باستمرار. صحيح أنه أصبح يحدث معي أحياناً أن لا أفتح ألبومي طيلة أسابيع، إلا أن هذه الفاترينة ما زالت تجذبني، بقَدْر ما كانت تفعل في السابق. أتسكّع بتباطؤ أمام المحلّ الذي دخلتُهُ قبل عيد الميلاد، واشتريتُ منه مجموعة "أوروبا - التشكيلة الكبيرة" لويلي. أتذكّر سعادتي وأنا أشتري هذه الهدية. تمنّيتُ أن يعود كل شيء إلى الوراء. أتفرّج وأسأل البائع أسئلة، لا أنتظر أجوبتها.

وبالرغم من أني أعرف جيّداً أن يوم السبت نفسه، هو اليوم الذي تتوفّر فيه إمكانية كبيرة، لأن يصادفني التلاميذ، بمَنْ فيهم ويلي، كنتُ أخرج، وأتنزّه، وأتأخّر.

في يوم سبت من شهر مارس (آذار)، كنتُ أشاهد المعروضات بدون حتّى النظر لمحتواها، دخلتُ محلّ الطوابع، بشكل آلي. وإذ ويلي هناك، لم يكن وحده، كان رونالد معه، وهذا يعني أنهما تصالحا.

ولأنني تعوّدتُ على وضعية الإنكار، فقد اقتربتُ منهما، وألقيتُ عليهما التحية. ويلي ردّ التحية، باقتضاب شديد، أمّا رونالد، فقد رفع بالكاد عينَيْه إليّ، لا أكثر. تابعا نقاشهما مع البائع، أمّا أنا، فقد تعرّفتُ على ألبوم ويلي الأحمر، وفهمتُ أنه يريد بيع مجموعته! وذُهلتُ:

- ولكنْ ... لماذا تبيعها؟

لم أتلقّ إجابة.

- لا، لا، (كرّر صاحب المحلّ بضجر)، ليس عندي سبب لشرائها، أمتلك من هذه الطوابع الكثير، ماذا سأفعل بالمزيد؟ هل يمكنكَ أن تقول لي؟

- أوه، أرجوكَ. (قال ويلي بتوسّل). أريد أن أقدّم هدية لأمّي. هي حزينة جدّاً منذ موت أخي. تقول إن قبره سيصبح قريباً مثل كل القبور، وإننا قد لا نتعرف عليه حتّى في أحد الأيّام. تريد أن تضع فوق القبر لوحاً. إذنْ، لو أنكَ تعطيني ثلاثين دولاراً، سأستطيع أن أشتريه لها.

- ثلاثون دولاراً! ولكن ألبومك لا يساوي عشرة دولارات حتّى. صغيري .. أنا آسف ...

سرّب لي رونالد نظرة، ومن ثمّ، قال:

- أراهن، لو أن طوابع النمسا الجميلة لم تُسرَق، كان سيعطيكَ الثلاثين دولاراً بسهولة!

هكذا فتح صاحب المحلّ ألبوم ويلي على الصفحة الأولى التي أصبحت شبه فارغة، والتي تحوي طوابع النمسا:

- آه، نعم، أتذكّر. كان لديكَ الكثير هنا، وكانت طوابع جميلة جدّاً ... ما الذي حدث لها؟

- هل تعرف أنتَ؟.. (وشوش لي رونالد).

حاولتُ التظاهر رغماً عنّي بعدم الاهتمام، وبأن هذه الاتّهامات السخيفة لم تعد تُقلقني. ولكنْ، وسط اندهاشي الكبير ممّا يجري، تفاجأتُ بأنني متّهم بسلب ويلي شيئاً، هو اليوم في مَسَاس الحاجة إليه.

- أضعتَها إذنْ تلك الطوابع الجميلة؟ (أكمل الرجل النبيل). خسارة فعلاً، لو كانوا موجودين، كنتُ سأعطيكَ خمسة عشر دولاراً ربّما. ولكنْ، ثلاثين! أنتَ تغالط نفسكَ.

- إذنْ، كم ستعطيني؟

- لا شيء. أكرّر لكَ أنني أمتلك الكثير من هذه الطوابع. لن أستطيع بيعها أبداً ...

- لا بأس، لكنكَ ستهديني شيئاً ما، أليس كذلك؟ كم؟ هيّا، هيّا، أرجوكَ ..

- حسناً، حسناً، قال البائع مستسلماً في النهاية، لا أعرف هل يجب تصديق هذه القصّة المتعلّقة بأخيكَ، ولكنني أثق بكَ. خذْ، قال وهو يُخرِج من الدرج الذي يضع فيه المال ورقة من فئة العشر دولارات، خذْ هذه، ولا تقلْ أبداً إنني لا أمتلك قلباً طيّباً، ولكنكَ تحتاج لأكثر من هذا بكثير، إذا كنتَ تريد شراء اللوح.

- أعرف، (ردّ ويلي)، ولكنني سأجني البقية من عملي في الصيدلية كل يوم بعد المدرسة.

رأيتُ على وجه ويلي علامة سعادة، رغم الألم الذي كان يجب أن يشعر به بسبب انفصاله عن مجموعته. إنها بلا شكّ سعادة العطاء، التي حسدتُهُ عليها.كان يسارع للخروج، فمرّ قريباً جدَّاً منّي، بدون أن يراني. وبلا تردّد أمسكتُهُ من ذراعه:

- يجب أن تقول لي، يا ويلي. أمازلتَ تعتقد حتّى الآن أنني أنا مَنْ أخذ تلك الطوابع؟

مستعجلاً:

- أوه، لا أعرف شيئاً. لستُ متأكّداً من أيّ شيء ... على أيّة حال، لا تبدأ في الثرثرة هنا وهناك أنني بعتُ مجموعتي! لأنني أريد أن أُفاجِئ أمّي. هل تسمعني؟ لا كلمة لأيّ كان!

خرج ويلي، أمّا رونالد، فقد كان يتعمّد التباطؤ في الخروج بشكل واضح، عندما وصل أمامي قال:

- لا تُكلِّفْ نفسكَ عناء محاولة بيع تلك الطوابع الجميلة التي سرقتَها، كل أصحاب المحلات والمولَعين بجمع الطوابع، تمّ إعلامهم.

- هل ويلي مَنْ فعل ذلك؟ (سألتُ أنا مندهشاً).

- لا، أنا، (أجاب بنبرة مُستفِزَّة). وكنتُ الآن أشرح الأمر لهذا البائع، والآن أصبحوا جميعاً على علم.حتّى السّيّد "ساندت" اعترضني في حلبة التّزلّج منذ أسابيع قليلة ...

- "اعترضكَ"؟ تريد بالأحرى أن تقول إنكَ ذهبتَ إليه خصّيصاً لتحكيَ له.

- حسناً، وماذا بعد؟ على العموم، إن كنتَ تنوي بيعها، حتّى له، فإنكَ تضيّع وقتكَ.

- أترى رونالد؟ لم أغضب حتّى. لقد ضجرتُ. الأسطوانة ذاتها دائماً. تعال وفتّش في بيتي لو ترغب، أنا جاهز لإعطائكَ كل الأدلّة التي تريد. آه، كم ندمتُ على امتناعي عن التفتيش ذلك اليوم!

تلقّيتُ الرّدّ الذي أستحقّه:

- كاذب قذر!

وتركني، ليلحق بويلي.

بقيتُ هناك، ضائعاً قرب الباب، بجانب الواجهات، صاحب المحلّ الذي سمع كل شيء، اقترب منّي، فتراجعتُ إلى الخلف:

- ستتّهمني أنتَ أيضاً ربمّا! اطمئنّ، لم آخذ شيئاً. بإمكانكَ أن تفتّشني حتّى، لو أن هذا سيُسعدكَ!

كلامي أخرَسَ الرجل، وبقي لوقت يتأمّلني صامتاً، ثمّ قال:

- ولكنْ، أنا لا أتّهمكَ بشيء. ما الذي حصل معكَ فجأة؟

اقترب منّي أكثر، وتساءل:

- هل تشعر بالبرد؟ لماذا ترتجف؟ هل أنتَ مريض؟

هربتُ، متأكّداً أنه بعد خروجي سيتحقّق من أن شيئاً لم يُسرَق من محلّه.

أيّ عزاء أجده في الاختلاط بحشود أيّام السبت مساء! هؤلاء الناس كلهم الذين يتدافعون ويسارعون في الاتّجاهات كلها، الذين لا يلاحظونني، ولن يلاحظوني أبداً، حيث لا أحد يتّهمني بأيّ شيء.

فيما مضى، أمام موكب الشمس وهي ترتفع، كم كنتُ أشعر بالقوّة! قطعاً لقد تغيّرتُ كثيراً.

(١٨)

في أحد الأيّام، كنتُ مارّاً من أمام حديقة المرأة العجوز التي أهدتْني حجر الكوارتز الورديّ، وفجأة خرجتُ من باب منزلها، ونادتْني. سألتْني كيف حالي؟ وكيف حال بوبي؟ وهل أسعده حجر الكوارتز الوردي؟ ثمّ وبعد لحظات من الصمت:

- أوه، جيف، ألم ترَ بالصدفة رفشاً لرفع الثلوج؟ رفشي اختفى، لقد كان ذا ممسكة خضراء وحمراء. لا أعرف هل أن أحداً ما ربمّا .. استعاره؟ ...

- تعتقدين أنه أنا، أليس كذلك؟ في كل مرّة يختفي فيها شيء ما، تظنّون أني مَنْ أخذه.

تأسّفت السّيّدة لما جرى. وحاولت عبثاً أن تُصلح الموقف، حتّى إنها جاءت فيما بعد لتعتذر أمام أمّي.

لقد بالغتُ في أخذ الأمر بحساسية دون مبرّر. في إحدى الليالي، علّق بوبي ملحفة في الطابق الأرضي، ووراءها وضع لمبة. ناداني لأتفرّج على عرض ظلال على الطريقة الصينية، خمّن أنه سيُعجبني.

قدّم لي في البداية، بمساعدة الوسائد، مشهداً مدهشاً، تأثّراً بالأحداث، لخائن صينيّ، قُطِعَ رأسه، بواسطة السيف. وفُوجِئتُ بنفسي

أتساءل هل أُعدّ بالنسبة إلى ويلي هذا الخائن؟ وهل يجب بالتالي قطع رأسي؟

- اسمع، جيف، حاول أن تخمِّنَ اسم الحيوان الذي أقلِّده الآن، (قال وهو يلعبُ بظلال يَدَيْه فوق الملحفة)، خمِّنْ، جيف.

- لا أعرف.

- خمِّنْ، بلى، خمِّنْ. إنه حيوان خبيث، يسرق الدجاجات، أذناه كبيرتان ومدبّبتان، ألا ترى ما هو؟ انظر، إنه خائف، إنه يهرب. خمِّنْ .. إنه ثعلب.

- أوه! دعني بسلام أنتَ وثعلبكَ!

صعدتُ فجأة إلى غرفتي، كنتُ نادماً، وتردّدتُ طويلاً قبل النوم. تذكّرتُ ماما وهي تؤكّد أنني شخص طيّب. نزلتُ الدرج بهدوء، وفي نيّتي أن أقول لبوبي إنني نادم على ما قلتُهُ، باب غرفته كان مواراً، اقتربتُ، وسمعتُهُ يقول:

- مَنْ هنا؟

تردّدتُ قليلاً، ولكنني لم أردّ.

- جيف؟ هذا أنتَ؟

ركضتُ إلى غرفتي، دون أن أقدر على قول كلمة.

أصبحتُ شديد الحساسية فعلاً، لدرجة أنني كنتُ يوماً عند السّيّد "ساندت"، وراح يفتّش عن ميدالية كانت أمامه، احتججتُ بعنف.

- ليس أنا! لماذا تنظر إليّ هكذا؟ ليس أنا!

- ولكنْ، أيّها الرجل الصغير، أنا لم أسألكَ عن شيء ولا أنظر إليكَ مطلقاً. لماذا تحتجّ بهذا الشكل؟ ها .. لماذا؟

بدأتُ في إفراغ جيوبي، لأُقنعه.

- توقّف، يا فتى، أرجِعْ أغراضكَ لجيوبكَ، أنا لا أتّهمكَ بشيء. آه! ها هي، ميداليتي .. ولكنْ، في النهاية، ما معنى أن تصرخ هكذا؟ هل أنتَ مجنون، يا صغيري؟

كان هذا ما قيل لي أيضاً، في اليوم الذي كنتُ مارّاً فيه أمام مجموعة من التلاميذ، وتهيّأ لي أني سمعتُ كلمَتَي "بحث" و "سارق"، هاجمتُهم:

- حسناً، هل فقدتُم الشجاعة الآن لتقولوا ذلك بصوت مرتفع؟

- ماذا؟ (تساءلوا ساخرين). ولكنْ، لا، نحن نتحدّث عن آخر فيلم ويسترن، يُعرض في سينما إيزيس. أنتَ مجنون.

لكنْ، في المدرسة أنا مُجبَر على أن أكون دائما أكثر حذراً، وأن لا أفكّر بالتّصرّف بعفوية. عندما يضحك الصّفّ على نكات الآنسة مارتال التي تأخذها أحياناً من مجلّة "ريدرز دايجست"(*) في الأوقات التي يمنعنا المطر فيها من الخروج إلى الساحة واللعب في فترة الاستراحة. وحتّى لو

*) ريدرز دايجست: مجلّة عائلية أمريكية شهرية. صدر العدد الأوّل منها عام ١٩٢٢، وصلت إصداراتها إلى ٥٠ نسخة في ٢١ لغة، ممّا جعلها أكبر مجلّة مدفوعة تداول في العالم. صدرت بالعربية في سبتمبر (أيلول) ١٩٤٣ في مصر، وأُلغي ترخيصها بعد ذلك. ثمّ أُعيد نشر الإصدار العربي باسم "المختار". في أغسطس٢٠٠٩، أعلنت الشركة الناشرة لمجلّة ريدرزدايجست، أنها تنوي وضع نفسها تحت حماية قانون الإفلاس الأميركي، وذلك بالاتّفاق مع دائنيها الرئيسيّين.

كنتُ غارقاً في أحلام اليقظة، ولم أسمع شيئاً، فإنني لم أكن أُفوِّت فرصة كتلك للاسترخاء. ولكنْ، في إحدى المرّات وشوش لي أحد التلاميذ أننا إذا نُكِبْنا بشَفَة كَشَفَتي، لا يجب أن نضحك. وآخر قال لي إنني أضحك مثل ضبع. في الأحوال كلها، كان الضحك يمنحني شعوراً بالراحة والرضا، ومن الطبيعي بالتالي أن أبدو غريباً بعض الشيء.

هكذا أصبحوا يُحرِّمون عليّ الضحك، ولقد كان تحريماً معنوياً، ففي كل مرّة يقهقه فيها الصّفّ، كان التلاميذ القريبون منّي يتولّون مهمّة مراقبتي، منتظرين اللحظة التي ترتسم فيها على شَفَتَيّ أدنى ابتسامة، وإن حدث وجاءت، كانوا يهاجمونني بموجة أصوات مغطّاة بضجيج الضحك:

- أغلقْ فمكَ!

- امسحْ ضحكة فمكَ القذر هذه!

لو تجرّأتُ أيضاً على التصفير بصوت منخفض، وأنا في طريقي إلى المدرسة بأُغنيّة: "أوه، يا له من صباح جميل!" كانوا يبدؤون في تقليدي، والتصفير بأصوات وحشية فقط حتّى أسكت. لا ألومهم، وأُقنع نفسي أنني أستحقّ كل ما يحدث لي.

أكرّر بأن ويلي لا يشترك معهم أبداً في هذه "البلطجة".

في واحدة من فترات الاستراحة التي تقرأ لنا فيها الآنسة مارتال آخر نكات "ريدرز دايجست"، دخلت معلّمة بوبي، وقالت لها بعض الكلمات. أعلنت الآنسة مارتال أن أخي الصغير مريض، وأن عليّ اصطحابه إلى البيت.

- ولكنْ، ألا يستطيع بوبي الرجوع إلى البيت بمفرده؟ إنه يفعل ذلك كل يوم. (قلتُ محتجّاً).

- بالطبع، لا، إنه مريض. أقول لكَ يجب أن تصطحبه، إنها تُمطر أيضاً .. (ردّت الآنسة مارتال بغضب).

بدأ التلاميذ يطلقون تنهّدات الارتياح مع فكرة مغادرتي:

- أخيراً! سيُمكننا التّنفّس!

- هيّا، هيّا، ليس من اللطف قول أشياء مماثلة. (قالت معترضة الآنسة مارتال).

أمام صفّه، وجدتُ بوبي حزيناً ومنكسراً. حاول أن يمسك سبّابتي، كما في السابق، عندما نمشي معاً. ولكنني أبعدتُ يده، وأخذته بقوّة من معصمه:

- هيّا، أنتَ! لماذا فعلتَ هذا؟ لم تعد تستطيع العودة إلى البيت بمفردكَ الآن؟ ألا تعلم أن كل الصّفّ سخر منّي؟

- لا أشعر أني بخير، (قال بصوت منخفض ومنهَك)، لا أشعر أني بخير ..

قالت لي معلّمته بالفعل، إنه يشكو من معدته.

طوال طريق العودة، لم أتوقّف عن تعنيفه:

- سأريكَ، ستدفع ثمن ما فعلتَهُ اليوم، لن أسامحكَ أبداً على جعلي محطّ سخرية!

وفي النهاية، سكتُّ، أكملْنا صامتين، حتّى قال هو فجأة:

- لم تعد تحبّني، يا جيف؟ هل تتذكّر تلك المرّات التي كنتُ أنتظركَ فيها أمام المدرسة؟

- وماذا بعد؟ هذا لا يبرّر لكَ ما فعلتَهُ اليوم.

- ليس هذا ما أريد قوله، أريد أن أقول إنكَ حينها كنتَ لطيفاً معي. البارحة ليلاً ... أقصد ما قلتَهُ لي ليلة البارحة، هل كان حقيقياً؟

- ماذا قلتُ؟ لأنني نسيتُ.

- قلتَ لي: "في كل مرّة أراكَ فيها، يكون ذلك لتُزعجَني." صحيح؟ لم تعد تحبّني، إذنْ؟

- لا أعرف ...

- إذنْ، لا، لم تعد تحبّني.

لم أجاوبه، لم أنظر إليه حتّى، ربمّا خشية أن أرى دموعه. لوهلة تردّدتُ، هممتُ بالتّأسّف إليه، وقول: "طبعاً، أحبّكَ، يا بوبي، ولا تفكّر فيما حصل الآن في المدرسة، هذا لا قيمة له ...".

ولكنْ، للأسف، كل هذه الكلمات لم أقلها في النهاية.

- قل، يا جيف، (كرّر بإصرار)، لم تعد تحبّني؟

- أوه، أن تُحبّ، أن تُحبّ ... هل تعرف حتّى ما يعني هذا؟ اخرسْ، ولا تتكلّمْ عن أشياء مازلتَ صغيراً جدّاً على فهمها ..

يمكن القول إنها الفترة التي بدأنا نرى فيها بوبي واقفاً لساعات أمام النافذة، صامتاً، جامداً، ولم نعد نسمعه مطلقاً يقول: "عندما أصبح كبيراً ..."، وعندما يسأله أحد أبوَيْنا:

- ما الذي تفعله هنا؟

يجيب:

- لا شيء.

- ما الشيء الذي تتأمّله طيلة هذه الساعات من خلال النافذة؟

- لا أعرف ...

في يوم من أيّام السبت، كنتُ مارّاً مثل العادة على متن درّاجتي الهوائية بالقرب من بيت ويلي، بدون أن أقترب كثيراً. فجأة لمحتُهُ. كان ينزل الشارع مع عربة صغيرة، تتكوّم فوقها جرائد قديمة وقِطَع من الكاوتش/ المطّاط البالي الذي كان الأطفال يجمعونه في ذلك الوقت من باب إلى باب من أجل "المجهود الحربي".

هل أحاول إعادة العلاقة معه؟ ثمّ أنتظر اللحظة المناسبة للاعتراف والتّخلّص من هذا العبء؟ لعلّها فرصتي الوحيدة، بما أنه وحده، وهذا قلّما يحدث. شبكتُ أصابعي لأمتلك الشجاعة، ثمّ، مدفوعاً بأمل جنوني، ركضتُ نحوه.

ولكنْ، حتّى قبل أن نتكلّم شعرتُ أن بيننا جداراً، لا يمكن هدمه.

- ماذا تفعل؟ (قلتُ لأنني لم أجد شيئاً أفضل، أفتتح به حديثي).

- كما ترى، (وأشار لعبوات الماء البالية، خراطيم السقي المثقوبة والجرائد الصفراء).

وسط صمت ثقيل تبعتُهُ، آسفاً لأنه لم يطلب منّي مرافقته، دون أن أتجرّأ أنا أيضاً على اقتراح ذلك.

- ألا يأتي رونالد معكَ؟ (قلتُ أخيراً).

- لا. لم أعد أراه كثيراً.

لم أستطع إخفاء نوع من السعادة داخل دهشتي:

- ولكنْ، لماذا؟

- لا أعرف. أعتقد أنها أمّه. حسناً إنها لطيفة دائماً معي طبعاً، ولكنْ، في كل مرّة أرافقه فيها إلى منزله، كانت تأخذه فوراً داخل سيّارتها إلى المحلات الكبرى، أو إلى وسط المدينة، أو لا أعرف أين. وأنا أكيد أنها لابدّ قالت له شيئاً بخصوصي، فقد أصبح فجأة يضع مسافة بيننا. تقول أمّي إن هذا عادي، لأنني، في النهاية، لستُ ابن طبيب.

- بالمناسبة، هل أصبحتْ أمّكَ أفضل؟

- نعم، ولكنها ما تزال في السرير. تتكلّم طوال الوقت عن جورج. أوه، لكنها ستتعافى في النهاية، إنها أقوى ممّا نظنّ.

هذه الكلمات الأخيرة جعلتْني أتذكّر بألم تلك الكلمات التي قالها لي بعد لعبة "الرجل فوق الجبل".

سألتُهُ بعد تردّد:

- قلْ ويلي، في ذلك اليوم الذي لعبنا فيه "الرجل فوق الجبل" ...

- نعم .. ما به؟

فات أوان التراجع الآن، يجب أن أقول ذلك.

- إذنْ؟ وماذا بعد؟ (كرّر ويلي).

خرجت الكلمات تقريباً، بالرغم عنّي، سريعة جدًّاً:

- لماذا كنتَ لطيفاً جدًّاً معي في تلك الفترة!

انحنى بضيق على العربة، ليُصلح بشكل أفضل موضع خرطوم عجوز من المطّاط ما يزال ملتصقاً بحنفيّته، ذكّرني هذا الشيء باليوم الذي تعاتبنا فيه أمام مغاسل المدرسة.

- حسناً، لا أدري، كنتُ أشفق قليلاً عليكَ.

- تُشفِق! آه! لم تكن صداقة إذنْ، كانت شفقة فقط، لا شيء أكثر. أُزعجكَ، أليس كذلك؟ نعم أرى جيّداً أنني أُزعجكَ.

وركضتُ مبتعداً دون أن ألتفت إليه مرّة واحدة. لم أتخيّل أو أطمع في أن يناديني.

- جيف!

ورغم أنه نطقها بدون إصرار، فإن هذا النداء الصغير أشعرني بكثير من الراحة، وملأني بالسعادة. ومع هذا، وبكل غباء، بغباء شديد، لم أردّ.

وحيداً من جديد، كنتُ أبتعد، لا شيء سوى الشفقة، حدّثتُ نفسي بكل أسف. ولكن هذا يُغيّر كل شيء. سيختلف الأمر كثيراً الآن عن سرقة

صديق حقيقي، لو كانت صداقته لي حقيقية وصادقة، لو لم تكن فقط شفقة، لكان أمر السرقة أسوأ بكثير.

في الأثناء، لم أتمكّن من مواصلة خداع نفسي طويلاً هكذا. ألم يكن بالإمكان أيضا أن لا يشعر ويلي بالشفقة عليّ؟ والشفقة ألا تحمل بداخلها - رغم كل شيء - شيئاً جميلاً؟ فلنترك الصداقة جانباً، باستثناء ويلي، هل كان ثمّة تلميذ واحد قادر حتّى أن يُشفق عليّ؟

هل أعيد العلاقة مع ويلي؟ لا، حتّى لو رغب هو نفسه في ذلك، فأنا لن أستطيع. كيف سيمكنني النظر في عينَيْه، مثل صديق؟

توجّهتُ مباشرة إلى غرفتي، مُصمِّماً على إتلاف تلك الطوابع مرّة واحدة وإلى الأبد. توقّفتُ أمام علبة "الويتفايلدز سامبلر" التي لم أفتحها سوى ثلاث مرّات منذ يوم السرقة، مفكِّراً أنني في السابق عندما كنتُ أحلم أن أصبح جامع طوابع كبيراً، عاهدتُ نفسي أن أمتلك مجموعة رائعة، أضطرّ معها إلى وضعها في خزانة حديدية لحمايتها من السرقة. "إذا لم توجد الخزانة الحديدية، حدّثتُ نفسي بمرارة، فعندي على الأقلّ علبّة الويتفايلدز سامبلر هذه ...".

هل أرمي هذه الطوابع؟ ولكنها تسحرني دائماً، كما منذ أوّل مرّة. هل أُتلف طوابع "الرجل فوق الجبل"؟ كيف سأستطيع؟ انتهى الأمر بأن غيّرتُ مكانها داخل القاعدة المضاعفة.

(١٩)

يا للأسف، رغم أني أخفيتُها، ما تزال تلك الطوابع تعذّبني كما لو كانت أمام عينَي. أخرجتُها. ولكنْ، ماذا سأفعل بها؟ لا يمكنني أيضاً الاحتفاظ بها إلى أجل غير مسمّى. حسناً، غداً سآخذها إلى المدرسة، وسوف أنتظر اللحظة التي لا يلحظني فيها أحد، لأضعها خلسة على طاولة ويلي، هذا قرار.

كنتُ أتناول فطور الصباح، عندما لاحظت أمّي انتفاخ جيوبي:

- ماذا تخبّئ أيضاً داخل جيب بنطلونكَ؟ محارم؟ لا؟ إذنْ، ماذا؟ أرني.

وبما أنني لم أتحرّك فقد أكملت:

- لماذا لا تضع كل أغراضكَ داخل محفظتكَ؟ دائماً ما تُفسد شكل جيوبكَ. وبعد ذلك أنا مَنْ عليه ترقيعها ...

خلال الساعات الأولى في الصّفّ، كنتُ قلقاً من فكرة وجود الطوابع في جيبي. كلّما نظر لي أحدهم، كنتُ أخفض عينَيّ بسرعة، كما لو أن الآخرين اكتشفوا أمري، وصل بي التّوتّر إلى حدّ الخوف من الإمكانية الواردة، أن ينقضّ التلاميذ عليّ، ويبدؤوا في تفتيشي.

جاءت العشرون دقيقة التي نأخذها للاستراحة. انتظرتُ بقلق الفرصة،

لأكون وحيداً في الصّفّ، ولكنْ، للأسف، تأخّرت الآنسة مارتال، وبقيت جالسة على مكتبها، لتُصحّح بعض الأوراق.

- لماذا لا تخرج جيف؟ الجوّ جميل جدّاً في الخارج.

- لا أشعر أني بخير، (قلتُ دون أن أكذب).

- بالفعل يبدو على ملامحكَ التعب، ولكن هذا سبب إضافي لتخرج، وتستنشق الهواء، هيّا. قفْ مستقيماً، ولا تضع يَدَيْكَ طوال الوقت هكذا داخل جيوبكَ، هذا قبيح.

بدا لي أن فرصة إرجاع الطوابع لصاحبها لن تأتي أبداً. ولكنْ، في ساعة الغداء، عندما خرج الجميع إلى مطعم المدرسة، جاءت الفرصة التي اغتنمتُها، وتعمّدتُ التّأخّر.

حتّى لا تضيع الطوابع، فكّرتُ أنني يجب أن أضعها وسط شيء ما. ولكنْ، ماذا؟ ورقة؟ ولكنْ، لا يجب أن تكون من عندي، لأنهم سوف يتعرّفون عليها، وفجأة لمحتُ على الأرض قرب طاولة رونالد ورقة نشّافة، بسرعة طويتُها، وسرّبتُ بداخلها الطوابع، وبلا تردّد، وضعتُها ضمن أغراض ويلي. أخيراً تمّ الأمر!

عدتُ إلى مقعدي، ورحتُ أتأمّل الورقة، التي تغطّي جزءاً من كتاب ملصوق فوقه: "ويلي. أ".

بعد ذلك، انتبهتُ أن عليّ المغادرة قبل أن يأتي أحد، ويسألني عمّا أفعله هنا. عندما وصلتُ إلى الردهة، غيّرتُ رأيي فجأة، وعدتُ راكضاً لآخذ الطوابع من جديد. ولكنْ، تأخّر الوقت، فكالعادة عندما تغيب الآنسة

مارتال، يقوم المغلاق الأوتوماتكيّ بغلق باب القاعة بالمفتاح، وقفتُ على أطراف أصابعي، وشيّعتُ بصري عبر الزجاج إلى أبعد ما يمكنني رؤيته من القاعة. لم يعد بمقدوري تفادي العواقب التي ستنجرّ عمّا قمتُ به، ولكني، في المقابل، لم أكن منزعجاً، ذلك أني فكّرتُ أيضاً في شعور ويلي، وأغلب طوابعه تعود إليه. ابتعدتُ ومشاعري موزّعة بين الخسارة والارتياح النسبي.

جلستُ مضطرباً على حافّة نافذة الردهة متأمّلاً ذلك الباب المغلَق. ثمّ جذبتْني صرخات بعيدة آتية من الخارج، نظرتُ من خلال الزجاج، وكان المنظر يشرف بالنسبة إلى الثلاثة طوابق، على ساحة المدرسة. بعض المولَعين بلعبة البيسبول ابتلعوا غداءهم بأقصى سرعة، وهم الآن يشغلون الملعب. أحبّ هذه النافذة التي أجلس في بعض الأحيان على حافّتها، لأنها تسمح لي أن أرى دون أن يراني أحد ... ألصقتُ خدّي بأحد مربّعاتها المألوفة، حيث منحتْني برودته كثيراً من الهدوء.

في الخارج، كانت العصا تصطكّ بالكرة، واللاعب يسارع لتسجيل الهدف، ليستقبل أخيراً هتافات المشجّعين. وعلى الزجاج، تركتْ أنفاسي طبقة من الضباب، شكّلت شاشة مختلفة بيني وبينهم.

منذ الدخول إلى الصّفّ، بدأ بالنسبة إليّ الانتظار الشّاقّ لِلَّحظة التي سيكتشف فيها ويلي كل شيء. مرّ الوقت طويلاً جدًّاً. في كل لحظة كنتُ ألقي نظرة قلقة على الزاوية التي توجد فيها الطوابع، لكن ذلك لم يحدث سوى بعد استراحة بعد الظهر، في نهاية اليوم، عندما اصطدمت يده بالورقة، كان ذلك في أثناء حصّة الخطّ، وتظاهرتُ أنا بالانهماك كُلّيّاً في عملي. ولكني بسبب الاضطراب، لم أنفكّ عن تلطيخ الورقة بنقاط الحبر.

دون أن أدير رأسي إليه، كان بإمكاني توقّع دهشة ويلي، والنظرات التي توجّه بها إليّ. في النهاية، لم أعد قادراً على مقاومة إلقاء بعض النظرات عليه، إذ اكتشفتُ من خلالها أنني لم أكن محطّ اهتمامه. دارت محادثة صامتة بينه وبين رونالد ، عينا رونالد كانتا مليئَتَيْن بالحَيْرة، أمّا في عيني ويلي، فكان هنالك غضب شديد، عنيف ومتوعّد، كان كما لم أره أبداً من قبل.

عند خروجنا من المدرسة، بدأ النقاش بينه وبين ويلي، كنتُ مذهولاً من رؤية ويلي يتّهم رونالد الآن:

- ولكنْ، أين هي إذنْ الأجمل من بينها؟ لقد أعدتَ لي كل شيء إلا تلك التي لديها قيمة كبيرة، أين البقية؟

- أنتَ مجنون؟ ليس أنا، (قال رونالد محتجّاً)، أقسم! ما هو دليلكَ؟ هذه الورقة؟

- ولكنْ، نعم، انظر بنفسكَ، اسمكَ مكتوب هنا.

وما إن لمحني حتّى اقترب منّي، وأحاط رقبتي بذراعٍ صديقة.

- جيف المسكين، سامحني، لقد أسأتُ إليكَ بأحكام خاطئة. عندما أفكّر في الطريقة التي اتّهمتُكَ بها، واتّهمكَ بها كل الصّفّ... كيف سيمكنكَ مسامحتي؟

لم أستطع النطق. هذه الذراع التي استرجعت حنانها فجأة، تُثقِل كتفي، لأنني لا أستحقّها، لستُ سعيداً بالتأكيد بهذا الاتّهام الذي دبّرْتُهُ بشكل لاإرادي، ولكنني لستُ مستاءً أيضاً من رؤية أن الضحية هو رونالد نفسه الذي طالما اضطهدني. رغم ذلك لم أفعل الشيء الكثير لأُبرِّئه.

- أرني هذه الورقة، (قلتُ).

بالفعل وسط كثير من لطخات الحبر وكثير من الرسومات العابثة، ميّزتُ بصعوبة ولأول مرّة اسم رونالد، الذي كان بالكاد واضحاً، ولكنه أيضاً لا يحتمل احتمال أن يكون اسماً آخر.

- بالمناسبة، هذا ليس دليلاً على شيء، (قلتُ منزعجاً من نظرة العرفان في عينَي رونالد).

- أرأيتَ؟ (قال لويلي)، جيف وجد أيضاً أن هذا ليس دليلاً كافياً.

- كيف ليس دليلاً؟ (صرخ ويلي)، ما الذي تريده أكثر؟! وفكّر أنكَ تركتَنا نتّهم جيف المسكين، جيف الطّيّب إلى حدّ أن يدافع عنكَ الآن. حقير! إنكَ لا تستحقّ!

- تظنّ الآن إذنْ أنني أنا السارق؟ (قال رونالد بغيظ)، ولكنكَ فتّشتَني، تذكّر ...

ولأنني تظاهرتُ بمساندته، لم يتجرّأ على البوح عمّا يُقرأ في عينَيْه: أنني بعكسه لم أسمح بتفتيشي.

- نعم، ولكن هذا لا يمنع إدانتكَ، (جاوب ويلي)، مثلما لاحظ جيف منذ وقت طويل، أنا لم أفتشكَ بالفعل. كنتَ تستطيع وضعها ... في حذائك مثلاً. والباقي سهل: خجلتَ ممّا فعلتَهُ، أردتَ إرجاعها، لم تنتبه أنكَ أخذت هذه الورقة، هذا كل شيء.ورغم ذلك مازلتَ على قدر من الحقارة، تجعلكَ تحتفظ بأجملها.

- ولكنْ، أُقسم لكَ أن هذا غير صحيح، أُقسم لكَ بحياتي ...

- هل ترى، يا رونالد، (قلتُ أنا بنوع من التّشفّي)؟ هل ترى الآن معنى أن تكون متّهماً؟ ...

- قلْ لي، يا جيف، (سأل ويلي)، ثمّة شيء أريد معرفته: قبل أن يلحق بي رونالد إلى الصالون، كان معكَ كما تعرف، برأيكَ هل تمكّن من أخذ الطوابع في ذلك الوقت؟

- ممكن، لا أعرف شيئاً.

- لم ترَ شيئاً؟ لا؟ حسناً، لا بأس. (قال ويلي).

- أنا فهمتُ! (صرخ رونالد فجأة وهو يرفع إصبعه مشيراً لي)، إنه هو، الحقيقة بائنة، وتفقع العين! هو مَنْ سرق هذه الورقة من فوق طاولتي.

- اخرسْ! (ردّ عليه ويلي بعنف)، لا تعد لاتّهام جيف أبداً، وإلا ستندم، أنا أُحذّركَ!

- أيّ ظلم هذا إذنْ! (تعجّب رونالد)، ولنفرض أنني الفاعل؛ لن أضع هذه الطوابع في ورقتي، أترى!

- لستُ متأكّداً جدًّاً .. (أجاب ويلي). لمَ لا؟ إذا لم تكن تعرف أن اسمكَ مكتوب عليها وسوف يمكننا رؤيته؟

- هيّا، (قلتُ أنا أخيراً)، لا تعذّب رونالد، هذا لن ينفع بشيء، في النهاية، هل هذه الورقة تُعدّ دليلاً على أيّ شيء؟ لا! إذنْ؟

بينما كنّا نبتعد أنا وويلي، التفتَ لرونالد مجدّداً، وقال:

- والبقية، الطوابع الأجمل؟ سوف تُعيدها، سترى!

- أعرف لماذا تتّهمني الآن، يا ويلي، (صرخ رونالد). فقط لأننا لم نعد صديقَيْن حميمَيْن كما في السابق.

- لا تسمعه، (قال ويلي وهو يدير ظهره له، ويحيطني من جديد بذراعه المُحِبّة). إذنْ، هل تسامحني رغم ذلك؟ آه! أتفهّمكَ جيِّداً، إن كنتَ لا تريد فعل ذلك ... في ذلك اليوم عندما هربتَ، ناديتُكَ، لماذا لم تردّ؟ لا تريد أن تقول شيئاً، لن تسامحني؟ حسناً، أجبني!

- ولكنْ، بلى ...

- "بلى" ماذا؟ هذا يعني أنكَ سامحتني، لو أني فهمتُ جيِّداً.

- نعم ... (غمغمتُ أنا أخيراً، لم أجد إجابة أفضل، ولكنني كنتُ مضطرّاً للردّ بأيّ شيء).

لم أكن مرتاحاً على الإطلاق. خصوصاً في كل مرّة أسمع فيها كلمة المسامحة هذه.

انبثقت من عينَيْه سعادة، شعرتُ معها كما لو أنه أزاح حملاً ثقيلاً عن ظهره:

- هل نحن أصدقاء من جديد إذنْ؟ (سأل)، هل تعرف أن ذلك الطَّابَع الياباني الذي أردتُ أن أعطيه لكَ يوم السرقة، حسناً، إنه ما يزال في انتظاركَ.

في مفترق الشارع التالي، اغتنمتُ الفرصة للافتراق عنه.

- لا تقلْ إنكَ ستذهب! (احتجّ ويلي)، هيّا عدْ معي إلى بيتي.

- لا أستطيع، أبي ينتظرني في البيت، (قلتُ، مرتجلاً كذبة).

- نعم، لتشتري ثياباً، أو ليأخذكَ إلى طبيب الأسنان. إنكَ تتكلّم الآن تماماً مثل رونالد. حسناً، إن لم تسامحني، فهذا حقّكَ تماماً، لن أُجبركَ.

- ولكنْ، بلى، أنا "أسامحكَ" يا ويلي، بما أنكَ متمسك باستعمال هذه الكلمة، كل ما هنالك أنهم ينتظرونني في البيت، أُقسم لكَ.

لم أكن لأطلب شيئاً أفضل من أن أرافق ويلي إلى بيته. ولكنْ، أن أقبل منه مصالحة لا أستحقّها، سيكون نوعاً من الكذب أيضاً.

افترقنا، على أن "نلتقي قريباً جدّاً"، كان وعداً متبادلاً، لا أحد منّا كان مقتنعاً بالفعل بحصوله. مكثتُ لوقت طويل، محتميا ببعض الشجيرات، أراقبه وهو يبتعد. لم أره أبداً وحيداً إلى هذه الدرجة. قمتُ بالالتفاف على وجهتي، لأمرَّ على جانب الجدار، حيث، في يوم "الرجل فوق الجبل"، قادني فيض من السعادة على إلقاء حَفَنَات من الثلج في الهواء.

-

(٢٠)

ثمّ جاء عيد الفصح. هذا اليوم المرعب بدأ بشمس رائعة. ذوبان الثلج يُسمَع فوق السقف، ومن وقت لآخر تسقط قطعة من الجليد على الأرض.

قرّرت ماما أن تجعل من وجبة الغداء وليمة، لذلك فضّلت الذهاب إلى الكنيسة في الصلاة الصباحية، وأخذت معها بوبي، أمّا أنا وأبي، فقد شاركنا كالعادة في الصلاة التي تبدأ على الساعة الحادية عشرة، هكذا تقاطعنا في الطريق.

- سترون أيّ وليمة أُحضرها لكم! (قالت ماما).

- أنا أيضاً، أُحضّر مفاجأة لأحدهم ... أضاف بوبي بنبرة غامضة.

بالفعل، مثلما حدّثتني أمّي لاحقاً، الصغير بوبي انشغل بسَلْق البيض في ماء مصبوغ بعدّة ألوان، ثمّ راح يخبّئها في أماكن مختلفة من البيت. استعان بقلم من الشمع الأبيض، ليكتب فوق قشرتها كلمات بقيت بيضاء بعد الصبغ: "ماما"، "بابا"، "عيد سعيد"، "عيد فصح مجيد". ولكن أغلب البيضات كانت تحمل اسمي، "جيف".

وضع أيضا الطاولة القابلة للطيّ وفوقها لوح الشطرنج، بجانب قالب شكولاطة على شكل أرنب، مصففا البيادق، بشكل منظم جدا، وقال لأمّي:

- سأطلب من جيف أن يلعب معي الشطرنج، كما في السابق، كليلة عيد الفصح في العام الماضي.

حضرتُ أنا وأبي إذنْ صلاة الساعة الحادية عشر، جاهلين تماماً بكل استعدادات أمّي وأخي. ومثلما أصبحت أفضّل عدم الذهاب إلى الكنيسة منذ ارتكبتُ فعل السرقة، فقد أردتُ عدم الذهاب ذلك اليوم أيضاً، ولكنني رضختُ أمام إصرار والديّ.

خلال الخمسة أيّام التي سبقت عيد الفصح لم أسمع أكثر من ثلاثة تلميحات، تتعلّق بالطوابع! ولقد سمح لي هذا أن آمل أن يتغيّر الوضع. لكن هذا لم يمنع أن أتعرّض يوم العيد إلى أسوأ ردّة فعل على الإطلاق منذ حادثة السرقة. ولقد كانت من رونالد.

دقّت ساعة منتصف النهار، ارتفع صوت الأرغن، وبدأ الناس يخرجون من الكنيسة عبر الباب الكبير، متبادلين التحايا بلطف وحفاوة، مصافحين القسّ بثوبه الأسود وهم يشكرونه على خطبته. تأخّر أبي في التّحدّث إليه تحت القبّة، في حين كنتُ أنا أنتظره بعيداً بعض الشيء عن باب الكنيسة، تحت الشمس الحارقة.

في تلك اللحظة، ظهر رونالد بشعر مرتّب ووجه حليق، وبدا عليه أنه كان يبحث عنّي.

- آه، ها أنتَ ذا. رأيتُكَ داخلاً للكنيسة منذ قليل. قلْ لي ألا تجد ذلك جريئاً بعض الشيء، أنتَ، تعود إلى هنا؟

- أوه! توقّف، يا رونالد.. (قلتُ بنبرة متعبة).

- إذنْ، لقد تمّ نسيان السرقة الصغيرة؟ وماذا عن أنكَ ألصقتَ بي التهمة بقصّة تلك الورقة، لم تعد تفكّر فيها أبداً، بالطبع!

- مرّة أخرى! تعرف جيّداً أن هذا غير صحيح، ليست غلطتي إذا ...

- فعلاً، هذا تماماً ما يقوله أبي، إنها ليست غلطتكَ. هو طبيب كما تعرف. يقول إن السرقة والاتّهامات الباطلة، وكل هذه الأشياء، ليس عجيباً أن تصدر منكَ، لأنكَ بشَفَتِكَ الأرنبية هذه، لا يمكن أن تكون سوى مَسخ، كائن شاذّ، فاقد للصفات البشرية العادية. إنه يظنّ أن أَبَوَيْكَ أيضاً ليسا طبيعيَّيْن بدورهما، وأن ذلك لا يمكن أن يُسفر عن شيء جيّد. آه، لقد خسروكَ بالفعل، لأنهم لم يُحسنوا تربيتكَ.

توثّبتُ للقفز عليه، ولكنه هرب بسرعة بساقَيْه الكبيرَتَيْن، بدون أيّ كلمة أخرى. ترك فيّ هروبه نوعاً من الرضا الذي لم أفهمه.

بقيتُ مسمّراً هناك، وغائباً، فجأة حطّت يد أبي على كتفي، وأيقظتْني من شرودي:

- ولكنْ، ما بكَ؟ هل أنتَ مريض؟

في طريق عودتنا إلى البيت، لم يتوقّف أبي عن الحديث عن خطبة القسّ "الممتازة". ولأنني كنتُ أحاول مجاراته بصعوبة، سأل بإصرار:

- حسناً، ما بكَ؟

- لا شيء، قلتُ لكَ .. قلْ لي، يا بابا، هل أنا كائن شاذّ؟

- بالطبع لا، أيّ سؤال هذا؟!

- ونَدبَتي، أليست شَفَة أرنبية؟

- كيف؟ هذا حادث، وأنتَ تعرف هذا جيِّداً.

أبي يكذب أفضل ممّا تفعل ماما، فقد شعرتُ بالاطمئنان.

- مَنْ قال لكَ هذا؟ ذلك الفتى الذي كنتَ تتحدّث معه للتّوّ، هناك أمام الكنيسة؟ طيّب، ولم تدافع عن نفسكَ؟

- كنتُ سأفعل، ولكن ساقَيْه طويلتان جدًّاً ... قال لي أيضاً إنكَ وأمّي لم تُحسنا تربيتي.

توقّف أبي فجأة عن المشي، واصفرّ لونه، كأنما تلقّى ضربة في بطنه. وكما لو أنني أحاول تكملة التعداد، أضفتُ:

- لقد نعتَني بالسارق أيضاً.

- أيضاً! تسمح لأحد أن يهينكَ بها الشكل! تسكت؟ ولكنْ، دافعْ عن نفسكَ، بحقّ الرّبّ! لو كنتَ تريد إثبات أنكَ المذنب لم تكن لتفعل شيئاً أفضل ممّا تفعله الآن، ليتأكّد الجميع أنكَ السارق.

كنتُ أطمح لأن أجد بعض الطمأنينة بالكلام مع والدي، ولكنه عوضاً عن ذلك زاد في اضطهادي.

- إنكَ تتصرّف تماماً مثل مُذنِب، ولكنْ، دافعْ عن نفسكَ! لا تسمح لأحد أن يفتري عليكَ، أو يحطّ من قَدْركَ مثل جبان.

تركتُ أبي فجأة، غير حافل بمناداته، وعبرتُ راكضاً المسافة التي كانت

تفصلني عن البيت. كنتُ أريد الدخول بأقصى سرعة إلى غرفتي، وأكون وحيداً.

في الرَّدْهَة، قابلني بوبي، وقف أمامي، وحاول أن لا يتركني أمرّ:

- عيد سعيد، يا جيف. انظر!

كان يستعدّ لإخراج شيء من جيبه. حاولتُ أن أُنحّيه عن طريقي:

- لا يهمّني، اتركْني بسلام!

- ولكنْ، جيف، (قال برجاء وهو يمسكني من سترتي). ماذا فعلتُ لكَ؟ أنا لطيف معكَ، ولا أناديكَ أبداً "الشَّفَة الكبيرة"، أنا ...

تلك الكلمة لم تفعل شيئاً سوى أن صعَّدت غضبي، كافحتُ، لأُخلّص سترتي من يده.

من خلال باب الطابق الأرضي المفتوح جاء صوتي أمّي:

- هل ستكفّان عن الشجار؟ إنه يوم عيد الفصح، كما ترون!

لأستعجل، دفعتُ بوبي، ابتعد عنّي يائساً، وركض على طول الممرّ، نزل الدرج المؤدّي إلى الطابق الأرضي، ليلتحق بأمّه بحثاً عن شيء من المواساة بالتأكيد، ثمّ سمعتُ جلبة كبيرة. لقد جعله تسرُّعه يتعثّر. تعثّر في الدرجات الإسمنتية.

ركضت أمّي ومريلة المطبخ مليئة بحبّات التّفّاح الحمراء التي تركتْها تسقط على الأرض وهي ترى بوبي فاقداً للوعي أسفل الدرج.

- آه، يا إلهي، يا إلهي! (كرّرتْ وهي تُلوّح بيدها اليمنى التي ما تزال بلا وعي تقبض على تفّاحة).

كانت مثلي عاجزة عن الحركة، تنظر إلى بوبي دون أن تجرؤ على لمسه، ثمّ بدأت بالصراخ بكل ما أُوتيَتْ من قوّة، وهي تنادي على أبي الذي وصل إلى البيت توّاً. هو وحده حافظ على حضوره الذهني. وبرقّة كبيرة حمل بوبي بين يَدَيْه، ومدّده على كنبة الصالون. خيط رفيع من الدم كان يسيل من أذنه اليسرى.

وقفنا جميعاً صامتين، جامدين ننتظر قدوم سيارة الإسعاف التي لا يمكن تحديد زمن قدومها، على الطاولة، كان أرنب الشكولاتة ورقعة الشطرنج، ببيادقها المستعدّة لأن تتحرّك، ينتظران أيضاً ..

في اللحظة التي كان فيها الممرّضان بزيّهما الأبيض، يضعانه على النّقّالة، رأيتُ عينَيْه تنفتحان:

- جيف .. لم أفعل ذلك قصداً، لقد سقطتُ، هل تصدِّقني؟ جيف، هل تصدِّقني؟

ثمّ مدّ لي يداً كانت بداخلها بيضة تهشّمت قشرتها الزرقاء.

- نعم، أصدّقكَ ..

صعد أبَوَاي بعد بوبي إلى سيّارة الإسعاف.

- ابقَ أنت هنا، يا جيف، لتحرس المنزل، قالت لي ماما. ثمّ بطريقة آلية:

- اذهبْ وأطفئ النار التي تحت الدجاج، من فضلكَ.

سمعتُ صوت سيّارة الإسعاف يبتعد، مكثتُ هنا مع أرنب الشكولاتة ورقعة الشطرنج، مع السكاكين والشُّوكِ والملاعق ومع مفارش الطاولات الموضوعة كلها بعناية شديدة من قِبَل أمّي. كان عليّ، رغم ذلك، إطفاء النار التي تحت الدجاج.

انتظرتُ لوقت طويل جدّاً، وأبي لم يصل قبل بعد الظهر. جاء وحيداً.

- أين بوبي؟ أين أمّي؟ سوف يُشفى، أليس كذلك، بابا، هل سيُشفى؟

- لا نعرف بعد، من أجل هذا سمحوا لأمّكَ أن تقضي الليلة معه. احكِ لي الآن كيف حصل ذلك؟

شرحتُ له.

- جيف، (تساءل والدي). لماذا قال لكَ بوبي منذ قليل إنه لم يفعل ذلك "قصداً". هل تسبّبتَ له بكثير من الحزن؟

- نعم، أنا السبب كُلّيّاً، صرختُ.

كان عليّ أن أقول إن الطوابع هي السبب.

- لا، جيف، ليست غلطة أحد، أمّكَ تعتقد أنها غلطتها أيضاً، لأنها تركت باب الطابق الأرضي مفتوحاً، ليست غلطة أحد. ولكنْ، كان بإمكانك أيضاً ...

- ماذا؟

- لا شيء.

ولأنه كان بلا شكّ يرغب في البقاء وحيداً، فقد تركني، وانصرف.

لا أعلم كم من الوقت بقيتُ في الصالون أكرّر الدعاء نفسه:

- يا إلهي، اجعلْه يشفى.

رنّ جرس الباب رنّة صغيرة، وعبر النافذة، رأيتُ الجارة الصغيرة، وأنفها ملتصق بالزجاج.

- رأيتُ أن أباك عاد منذ قليل .. كيف حال بوبي؟

- لا نعرف حتّى الآن ..

- قلقنا كثيراً في البيت، عندما رأينا سيّارة الإسعاف.

- يجب أن يُشفى! (صرختُ أنا). إنني أصلّي من أجله بلا توقّف.

- آه، هذا لن ينفع بشيء، طالما لستَ كاثوليكياً ... الرّبّ لا يسمعكَ أنتَ .. هل تريد أن أُشعل من أجله شمعة في الكنيسة؟

- في كنيستكِ؟ هل تعتقدين أن هذا سيساعده على الشفاء؟

- بالطبع، (أجابت). جدّي شُفي تماماً من قرحة المعدة منذ ...

- وهل تعتقدين أن الرّبّ هكذا سوف يسمعني؟

- أوّلاً يجب أن تمرّ بالعذراء، وبعدها سنرى ...

انفجرتُ ضاحكاً مدفوعاً بأمل جنوني، ثمّ صرختُ:

- هل تأخذينني إذنْ إلى كنيستكم؟ هيّا بنا، فلنذهب فوراً.

عندما علم بنيّتي، حاول بابا أن يجعلني أُغيّر رأيي، ولكني أصررتُ:

- بابا، هذا مهمّ جدّاً، يجب المحاولة، يجب.

- حسناً، يا ولدي، إذا كنتَ تظنّ هذا ... (قال بحزن وهو يداعب رأسي)، ولكنْ، عُد بسرعة.

كانت كنيسة "سانت ماري" تقع أعلى التّلّ المقابل. وكنتُ أرى كل صباح برج جرسها من خلال نوافذ غرفتي. للوصول، كان علينا النزول حتّى الأسفل، حيث يمرّ التِّرام، ثمّ عبور الجسر القائم فوق الفجوة التي تمتلئ بالماء عند ذوبان الثلج.

- لا يجب البقاء طويلاً عند الدخول، لأن صلاة المساء ستبدأ قريباً، (قالت الطفلة).

- صلاة المساء؟

- نعم، نعم، سوف أشرح لكَ في مرّة أخرى.

صلّينا معاً. كان عليها أن تُعلِّمني أوّلاً صلاة بشارة مريم التي لم أكن أعرفها.

في الظلام، كانت شعلات الشموع تلقي بوميضها على التمثال الأبيض. شعرتُ أني مليء بشعور سِحْرِيّ غامض، متأكّداً من شفاء بوبي.

ولكني أردتُ أن أكون أكثر اطمئناناً:

- قولي لي، ماذا لو قمتُ بتضحية؟ لو أهبُ للكنيسة أغلى شيء عندي. مجموعة طوابعي ...

ثمّ فكّرتُ في عجينة الطوابع التالفة، التي مازلتُ محتفظاً بها إضافة إلى الطَّابَع الشَّفَّاف الذي ضاعت ملامحه، ولم يعد ممكناً التّعرّف عليه، أضفت:

- كلها، حتّى آخر طَابَع.

قالت بعد تفكير:

- ... ربمّا. لا أعرف. اذهبْ، واسأل القسّ.

كان هناك، ذهبتُ لأكلّمه، ولكنه رفض عرضي:

- ولكنْ، لا، الدِّين ليس صفقة، يا ولدي، احتفظ بطوابعكَ. ولكنْ، أشعل شمعة، وصَلِّ من أجله.

عندما أردتُ أن آخذ ثلاثة شموع، اندهشت مرافقتي الصغيرة:

- ولكنْ، لماذا ثلاثة؟ واحدة تكفي.

- وماذا لو انطفأت؟

- حسناً، كما تشاء.

اخترتُ ثلاثة، الأطول من بين كل الشموع، أشعلتُها، وثبَّتُّها فوق أحد الشمعدانات. ثمّ بقيتُ لوقت طويل أتأمّل تلك الشعلات، مكرّراً رجائي في أن يُشفى بوبي.

في الغد، مات بوبي.

في اللحظة التي سمعتُ فيها هذه الكلمة، ركضتُ نحو الباب.

- أين تذهب؟ أين تذهب؟ (صرخ خلفي والدَاي).

مثل مجنون نزلتُ التّلّ، أركض بأقصى سرعتي. الناس في الشارع يفسحون لي الطريق في ذهول. كان المنحدر قوياً، زدتُ من سرعتي، سقطت، وسالت من ركبتي الدماء، على الجسر سقطتُ ثانية بطريقة أقسى، إلى درجة أن فقدتُ القدرة على التّنفّس.

اعتدلتُ، وأكملتُ طريقي، أركض دائماً نحو كنيسة "سانت ماري". دفعتُ الباب بقوّة، واندفعت نحو الشموع التي كان ضوؤها يتماوج وسط الظلام، بحركة واحدة ضربتُ الشمعدان، فارتطم بقوّة بالبلاط الحجري.

- لقد مات!

أبي، الذي تبعني، دخل في هذه اللحظة، وأخذني بين ذراعَيْه.

- مات... (كرّرتُ).

حشد كبير من المؤمنين التفّ حولي وهم يتحدثون فيما بينهم عن الفضيحة. القسّ، نفسه الذي تحدّثتُ معه اليوم الفائت، تعرّف عليّ، وعندما اقترح عليه أبي التّكفّل بأيّ نوع من الإصلاحات، رفض بتفهّم كبير، وبنُبل أكبر.

(٢١)

لم تخرج كلمة من فمِ أحد في البيت طيلة أسبوع، كلّما حرّكنا وسادة أو أزحنا ستارة اكتشفنا بيضة مُخبّأة، بيض من الأنواع كلها، منها المصبوغة، ومنها المُغلّفة بالورق المعدني بمختلف الألوان.

لم أذهب إلى المدرسة، وكل مرّة أخرج فيها من البيت، أضطرّ للمرور من أمام الزاوية التي بين الجدار والشرفة. اختفى الثلج تقريباً في كل مكان، باستثناء هذه الزاوية التي لا تصل إليها الشمس أبداً، حيث ما يزال بالإمكان رؤية بقايا قلعة الثلج التي صنعناها بوبي وأنا قبل نويل. ألواح من الجليد المُوحِل، مُغبَرّة مال لونها إلى الرمادي، مُتهشّمة وكبيرة، كأنها صحون مقلوبة.

هذا كل ما تبقّى من ذلك الحِصن الجميل، حيث اختبأنا، حيث ضحكنا، حيث قال لي "أنتَ أخي". قشور الثلج البسيطة هذه تبعث فيّ الأمل، ولكن الخوف في الوقت نفسه، الخوف من الأيّام المشمسة التي ستجعلها تختفي.

لم يكن أصعب عليّ من المرور أمام تلك الزاوية سوى استعمال درج الطابق الأرضي. أريد تفادي المرور به، وأشعر في الوقت نفسه بانجذاب نحوه رغماً عنّي. لماذا - تساءلتُ - أكّد لي أنه "لم يفعل ذلك عمداً"؟ حتّى إنه أضاف أنه "سقط".

وهنا على الرّفّ، بجانب السلالم، توجد مجموعة أحجاره، والكوارتز الوردي. تذكّرتُ حجم سعادة المرأة العجوز عندما أهدتْهُ لي. وسعادتي عندما أهديتُهُ لبوبي. ألم تكن سعادة العطاء أيضاً ما دفعت بوبي لأن يتبعني في الممرّ، ليهديني تلك البيضة الزرقاء؟!

يعاودني دوماً هذا الشّكّ: ألم أكُ مسؤولاً عن موته؟ بطريقة غير مباشرة على الأقلّ؟ هذا الشّكّ كان والداي لا يتوقّفان عن محاولة دحضه. ولكنْ، بلا جدوى. الجواب الحقيقي الوحيد، كان رؤية ذلك التابوت الأسود الصغير، بمقابضه المعدنية الباردة التي كانت تلمع في الشمس يوم كنّا نُشيّع بوبي. التابوت المسكين حُفِرَت فوقه آثار قِطَع التراب القاسية التي رُمِيَتْ عليه، والتي دُفِنَتْ تحتها أيضاً الورود التي رميناها بالدور داخل الحفرة. كان هنالك أيضاً باقة الورد التي لا مفرّ منها المهداة كالعادة من الصّفّ، ومن الآنسة مارتال. كانت معها بطاقة تعزية كبيرة أقلّ جمالاً من البطاقة التي أُرسِلَت لشقيق ويلي. تخيّلتُ البطاقة وهي تطوف بين صفوف التلاميذ في حصّة الخطّ، الممانعة أمام التّطوّع للذهاب لاختيار الورد، تعيين "المتطوّعين"، ملاحظات الآنسة مارتال. وفكّرتُ أن بوبي قد قدّم خدمة للآنسة مارتال بأن منحها فرصة جديدة لإعطاء درس كبير.

وهم يقدّمون تعازيهم، لم يُفوِّت الجيران فرصة السؤال: "كيف حصل هذا؟"، والداي كانا يردّان دائماً: "لقد حصل ... في أثناء اللعب ..".

"في أثناء اللعب". ما الذي آلمني في هذه الكلمة تحديداً؟ طلبت تفسيراً من هذا الغريب الذي بداخلي، من هذا المسخ المُحيِّر القادر على التأثير، وعلى القسوة.

لماذا؟ لو استطعتُ فقط أن أعرف.

"في أثناء اللعب"، لم أستطع إخراج هذه الكلمة من رأسي. كل شيء يقودني إلى التفكير بها، بالأخصّ، إذا رأيتُ أطفالاً يلعبون.

في أحد الأيّام توقّفتُ، مُتفاجِئاً برؤية جارتَيْنا الصغيرتَيْن تلعبان الغمّيضة، بكل اندفاع السعادة، تعجّبتُ كثيراً من هذا المرح، كما لو أنني أكتشفه لأوّل مرّة. صرخت الرابحة: "أولي – أولي – أوكس - إن فري!" وأطالت المقطع الأخير بنبرة منغّمة وقحة.

في هذا الوقت، وعندما شعرتا أنهما مراقبتان، توقّفتا عن اللعب. بادرتْني الكبرى تلك التي رافقتْني إلى كنيسة سانت ماري:

- هل تعلم أين هو أخوكَ؟ خاصّة بعد الفضيحة التي قمتَ بها في كنيستنا! حسناً، أنا آسفة جدًّا، ولكنه في الجحيم. لو كان كاثوليكياً، لكان في الجنة الآن.

انتظرتا ردّي لدقائق، وعندما لم أنبس، استكملتا إذنْ لعبتهما:

- "أولي – أولي – أوكس - إن فري – إي - إي!"

قلتُ لنفسي وأنا أبتعد إنه في كل الأحوال، وأيّاً يكن مكان بوبي الآن، فقد أعطيتُهُ جحيمه قبل موته، وجعلتُهُ يعيش فيه. أمّا بالنسبة إليّ، فيكفي أن أعيش مع نفسي.

درج الطابق الأرضي هذا يُوتّرني، لا أستطيع تفاديه. وهنا على الرّفّ، مجموعة الأحجار تبدو كما لو أنها تنتظر صرخات صاحبها الممتدحة في الأوقات التي يغسلها فيها بالماء أو ينظر إليها من خلال العدسة المكبّرة. في أحد الأيّام، ما إن وقع بصري على حجر الكوارتز، رغبتُ بشدّة أن أقدّمه

مرّة جديدة هدية لبوبي. أمسكتُ بالحجر، إذنْ، وأخذتُهُ إلى الضّفّة الأخرى من السومرست، إلى المقبرة، أين وضعتُهُ! على طرف القبر. بقيتُ لوقت طويل، أتأمّل الحجر على الأرض المنعشة، مُستحضِراً كلمات بوبي عندما جلبتُهُ له أوّل مرّة، يوم "الرجل فوق الجبل": "أجمل من أيّ حجر آخر في مجموعتي، الأجمل على الإطلاق!".

في طريق عودتي من المقبرة، مررتُ من أمام متجر حلويات، وقفتُ أمام واجهته التي توشك أن تفرغ من قوالب الشوكولاتة التي كانت معروضة داخلها، تذكّرتُ أرنب بوبي. دخلتُ مدفوعاً بتأثير غريب:

- قلْ لي، سيّدي، ألم يعد عندكَ قوالب شوكولاتة على شكل أرانب؟

- نفدت، يا بُنيّ.

- نفدت؟

- ولكنْ، عندي أشكال أخرى كثيرة، كم من النقود تريد أن تصرف؟

عندما أفرغتُ جيوبي، وجدتُ خمسين سنتاً، اشتريتُ بها كيساً من الحلوى. ثمّ شعرتُ ببعض الغرابة، في الشارع، وأنا أحمل هذا الكيس بين يَدَيّ.

لم أجد ضرورة لأن أركب التّرام لأعود إلى البيت. فبدأتُ في قطع المدينة مشياً على الأقدام. الساعة كانت تقترب من نهاية بعد الظهر، من زاوية أحد الشوارع، كانت مجموعة كبيرة من التلاميذ يخرجون من إحدى المدارس. ذكّرني هذا أنني في الأسبوع القادم سوف أعود لمدرستي. الأطفال يصيحون، يتدافعون، يغلقون الطريق إلى الحدّ الذي حال دون مقدرتي على التّقدّم.

رأيتُ وَلَدَيْن، تبعتُهما. اليد الطرية للأصغر تشدّ بقوّة على سبّابة الكبير، كما كانت تشدّ يد بوبي في السابق على سبّابتي. بدون تفكير، اقتربتُ منهما، وأسقطتُ كيس الحلوى بين يَدَي الصغير. ثمّ مُكبّلاً بعاطفتي، ابتعدتُ عنهما دون قول كلمة.

حاول الأخ الأكبر الذي وقف مذهولاً أن يطلق خلفي بعض النداءات، التي لم أستطع تمييزها جيِّداً، لأنني كنتُ قد ابتعدتُ فعلاً.

(٢٢)

جاء أخيراً شهر ماي (أيّار)، أوراق الشجر الأولى، والنهار الذي أصبح أطول. في صبيحة أحد الأيّام، اخترق الضوء جفنَيّ، وأيقظني، كان يُغرِق الغرفة، عبر العشر نوافذ، المنحدر الذي ينزل باتّجاه الشرق، يبسط أمام عينَيّ كالمعتاد، الأسقف وجرس السانت - ماري، والأفق اللا محدود. أشاهد كما لو أنني أقف على قمّة جبل، الشمس وهي تصعد. التِّرام يمضي إلى وجهته، ثمّ صمت من جديد.

الشمس التي كانت بالكاد تطلّ، بدأت تكبر، وتتحرّر رويداً من بعض الغيوم. راودتْني رغبة في الغناء. "ليس مهمّاً مَنْ صنع هذا الجمال، فكّرتُ، المهمّ أنه هنا." مليئاً بالسِّحْر، مليئاً بالشهية أمام الحياة، بدأتُ أعيد إيقاع الأعوام التي ستأتي: "١٩٦٥، ١٩٦٠، ١٩٥٠" ... يوماً ما سأصبح عالم آثار كبيراً، سوف أذهب لاكتشاف العجائب المخبّأة داخل الأرض. عندما أصبح كبيراً ..." فجأة عدتُ للانهيار تحت وقع الذكريات، وكلمات بوبي في عيد الميلاد:

- "عندما أصبح كبيرا ، سوف أشتري لنا مئة وثلاثة عشر قالب كاتو، ومئة وثلاث عشرة شجرة!"

غير أن النسيان كان منذ وقت قصير، ولمدّة دقائق كُلّيّاً أمام مشهد

الشروق، إلى حدّ أن شعرتُ بضرورة الاصطدام بدليل إضافي من الواقع، ذهبتُ إلى الخزانة، وفتحتُ علبة "الوايتفايلدز سامبلر."

عثرتُ بداخلها على بيضة خضراء، وعلى القشرة، مكتوب بالشمع هذه الكلمة التي بقيت بيضاء:

"أحبّك".

لم أجرؤ على النظر ثانية إلى الشمس التي تشرق. شعرتُ أنني لا أستحقّ ذلك أبداً، دخلتُ إلى السرير والبيضة في يدي، دافناً رأسي بعيداً جدًّاً عن هذا الضوء. تحت الأغطية ظللتُ ممسكاً بتلك البيضة، التي انتقلت إليها حرارة جسمي، فأصبحت ساخنة، كأنها شيء حَيّ.

ما الفرق إذنْ بين الحُبّ والجمال والسعادة؟

بوبي، كان عيد الميلاد، وقصر الثلج. كان رفيقي الصغير الذي جاء ليصطحبَني على باب المدرسة. هذه البيضة تحمل لي بداخلها معنى من معاني الحياة، جعلني أخي أفهم أشياء كثيرة - حسناً، كل شيء فيّ العالم، يستحقّ عناء أن يُفهَم.

قرأتُ الكلمة من جديد: "أحبّك".. لعلّ الرّبّ هنا في نهاية الأمر، في هذه الكلمة!

وفكّرتُ أنني مَنْ قال له إنه لا يعرف معنى "أن تُحِبّ" ...

بروس لاوري: كاتب أميركي، حُبّه وولعه باللغة والثقافة الفرنسية، جعلاه يكتب بها رواياته، ثمّ يعود ويترجمها بنفسه إلى لغته الأمّ. وُلد سنة ١٩٣١ في نيفادا بالولايات المتّحدة الأمريكية، والنَّدبَة هي أولى رواياته التي وضعتْهُ في مقدّمة الكُتّاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية. تلتْها عدّة روايات أخرى، لكنْ، بقيت النَّدبَة أشهرها. توفيّ في أمريكا في العام ١٩٨٨ متأثّراً بمرض سرطان المعدة.

المتوسط

في نوفمبر ١٩٤٤، في الولايات المتّحدة، تنتقل عائلة الصغير جيف إلى بيت جديد في حيّ راق. هذا الانتقال سيجر على العائلة الكثير من المشاكل وأهمها تتعلّق بتأقلم جيف بسبب شفته الأرنبية (نَدبَتُهُ) التي ستجعل جميع زملائه الجدد في المدرسة يستهزؤون به.

يعالج بروس لاوري في هذه الرواية عدّة محاور قد يكون أهمها الإقصاء، بسبب الاختلاف، هذا الاختلاف الذي قد يتمثّل في لون أو شكل أو ديانة، فجيف يعايش أزمة حقيقية، بسبب تشوّه خِلْقِيّ، لا ذنب له فيه، يطرح، من خلالها، الكاتب عدّة أسئلة ميتافيزيقية ووجودية، ويدخل منطقة محظورة، تتمثّل في مُساءلة الرّبّ عن وجه العدالة في تحميلنا أسباباً للمعاناة والعزلة دون غيرنا. يُدخلنا لاوري في زاوية مساومة الإله: إن كنتُ أؤمن بكَ، لماذا تُسبِّب لي الأذى؟ ولماذا لا تسمع دعائي؟ تفسّر إحدى شخصيات الرواية ذلك بانتمائهم للطائفة البروتستانتية، وليس الكاثوليكية التي تنتمي هي إليها، ومن هنا ندخل دائرة أخرى هي التشكيك في الإيمان، بسبب اختلاف الديانة أو الطائفة. كما يتطرّق الكاتب إلى علاقة الأطفال بالآخر، وإلى دور العائلة والثقة بين أفرادها، ويناقش قضايا مثل الكذب والموت، ثمّ وبشكل أو بآخر، يُلقي الكاتبُ الضوءَ على حياة العائلات الأمريكية في أثناء الحرب العالمية الثانية.

منشورات المتوسط

«رواية لا تُنسَى حول الاختلاف» هذا ما قيل، وما زال يقال حتّى اليوم عن هذه الرواية، الأقرب إلى دراسة نفسية تراجيدية، والتي كُتبَت باللغة الفرنسية من قِبَل الكاتب الأميركي بروس لاوري سنة ١٩٦٠، يحكي فيها قصّة جيف، الذي كان موضع سخرية زملائه، بسبب نَدبَته التي خُلِق بها، حتّى غرق تدريجياً في عزلة قاتمة. وضعت هذه الرواية صاحبها في مقدّمة الكُتّاب باللغة الفرنسية، وسلّطتْ عليه الأضواءَ، حيث تحصّلتْ على جائزة أفضل كتاب فرنسي للعام، وجائزة الريفارول عام ١٩٦١، وجائزة الأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٦٢، كما دخلت في المناهج التعليمية في فرنسا، وكانت موضوعاً لعديد الدراسات.

تُرجِمَت إلى العديد من اللغات، من بينها الإنكليزية والإسبانية.

ISBN 978-88-85771-60-4
9 788885 771604
المتوسط